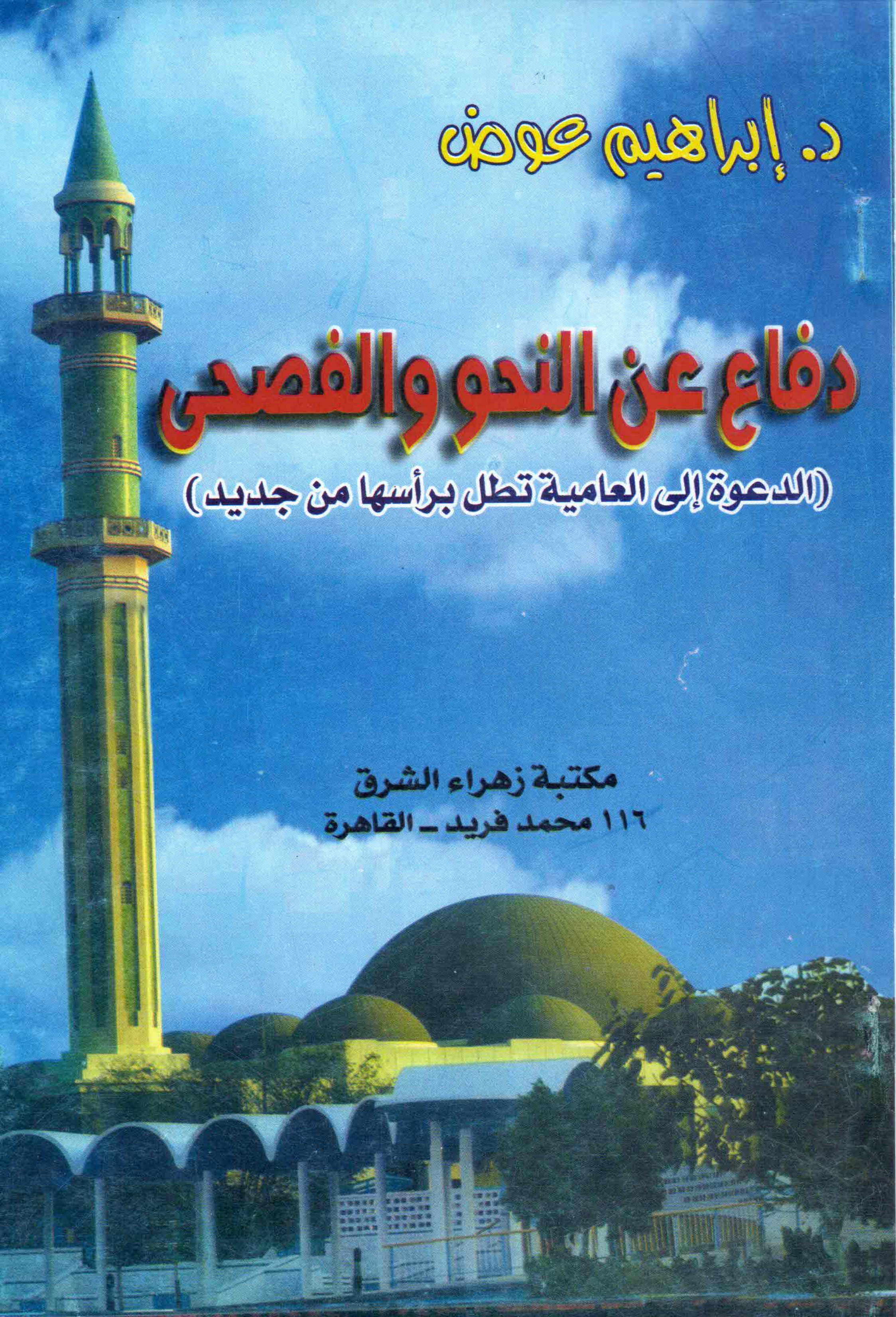


د. إبراهيم عوض
دفاع عن النحو والفصحى
(الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد)
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد ـ القاهرة

اللوحة بريشة
سلوى ابراهيم عو



دفاع عن النحو والفصحى

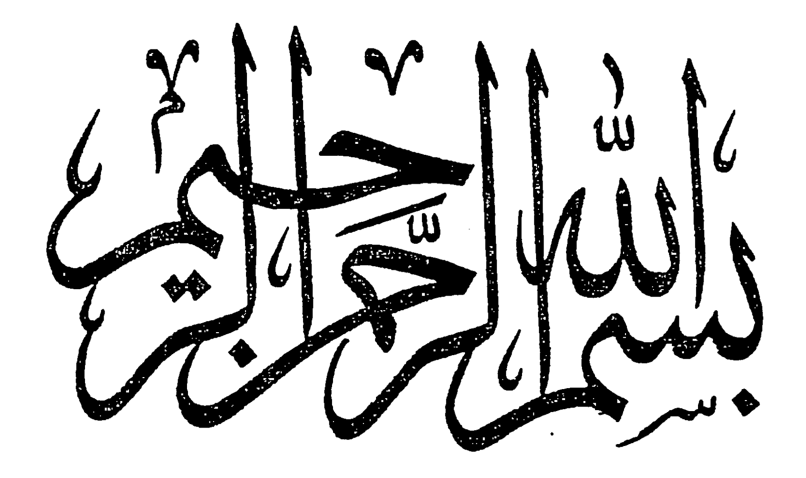
الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

دفاع عن النحو والفصحى

الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد ـ القاهرة
هاتف ٣٩٢٩١٩٢


بسم الله الرحمن الرحيم

توطئـــة

«أمامكم فرصة العمر الآن لخنق الإسلام وقتله ، فلا تضيّعوها» !
هذا هو الشعار الذى يتنادى به هذه الأيامَ أعداءُ دين الله من كل ملة ومذهب ، متوهمين فى عمايتهم وغلظ بصيرتهم وأكبادهم أن الإسلام يلفظ فعلا أنفاسه الأخيرة ، وأنهم إذا ما كثّفوا جهودهم بعض الشىء فى حربه فسوف يتخلصون منه ويرتاحون إلى الأبد . وهذا غباء مطبق ، إذ كيف يمكن مخلوقا عاجزا فانيا أن يطفئ نور الله الذى يسطع فى آفاق السماوات والأَرضين بنفَس واهٍ من فمه ؟ إن دين محمد باقٍ ما بقيت الحياة ، إلا أن أصحاب القلوب الغُلْف لا يفهمون . ولسوف يفيق الأوغاد من أوهامهم على قارعة تصكُّهم صكًا وتبددهم شرَّ مبدَّد، وعندها سيندمون ندامة الكُسَعِىِّ ، ولكن لاتَ حينَ مَنْدَم .

وهذا الوهم المغفَّل قد سوَّل للصراصير الجبانة أن تخرج من جحورها ، وقد قام فى خيالها المجنون أن بمستطاعها الإطاحة بالرواسى الشُّمّ، متناسيةً أنها مجرد صراصير حقيرة : فرأينا صرصورا يهاجم القرآن المجيد ، وصرصورا آخر يناطح السنة النبوية المشرفة ، وصرصورا ثالثا يحاول النيل من سيد الأنبياء والمرسلين ، وصرصورا رابعًا يطاعن

لسان العرب الذى نزل به كتاب الله فقُضِيَ له من ثمَّ بالخلود ، وصرصروا خامساً ...، وصرصروا سادسًا ... إلى آخر الصراصير ، وما أكثرها ! إلا أنها تبقى ، فى نهاية المطاف ، صراصير قذرة تبعث على الاشمئزاز وتثير الغثيان ، ولا تستحق من أحدنا أكثر من أن يسحقها بحذائه !

الراجى رضا ربّه والهائم بحب رسوله

إبراهيم عوض

٢٠٠٣م

دفاع عن النحو والفصحى

صدر فى العام الماضى عن دار رياض الريّس كتاب من ١٧٦ صفحة يهاجم العربية الفصحى ونحوها بعنوان « جناية سيبويه ـ الرفض التام لما فى النحو من أوهام » لشخص يُدْعَى زكريا أوزون جاء فى مقدمته أن اللغة العربية أصبحت لغة جامدة بل تراجعت عالميا حتى إن أهلها أنفسهم لم يعودوا يهتمون بها ، وأرجع ذلك إلى سببين : علم النحو العربى ، والاشتقاق اللغوى لاستيعاب المفردات والمصطلحات الجديدة . أما الكتاب نفسه فينصبّ كله تقريباً على نقد النحو العربى ومحاولة البرهنة على أن قواعده مجافية للمنطق والعقلانية ، أما مسألة الاشتقاق فقد لمسها الكاتب لمسًا عجلا فى صفحات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، مضيفًا إليها دعوته إلى اطّراح الأرقام التى نستخدمها اليوم والأخذ بما يسمّى بـ « الأرقام العربية » ، التى يكتب بها الأوربيون الآن ، وهى (... 4 , 3 , 2 , 1) .

وبالنسبة لنقد النحو العربى نجد أن المؤلف لا ينهج سبيلاً يعرف القارئ منها بسهولة ووضوح ما يريده بالضبط : هل يريد تخفيف القواعد بحذف بعض أبوابها أو اختصار شىء من تفصيلاتها أو الاعتراض على فلسفة هذا الاستعمال أو ذاك منها ؟ أم هل يريد إلغاء النحو والإعراب جملةً واحدة والركون إلى تسكين أواخر الكلمات ؟

أم هل تراه يريد بالأحرى ترك الفصحى تمامًا والانكفاء إلى العامية ؟ ثم إن كان المراد هو هذا الهدف الأخير ، فأيةَ عامية يا ترى نتخذ ، والعاميات (كما هو معروف) كِثَار بكثرة عدد الأقطار العربية ، لا بل بكثرة عدد المناطق داخل كل قطر من تلك الأقطار ؟ فهذا أول ما يمكن أن يؤخذ على الكتاب ومؤلفه .

ولنبسط القول فى ذلك بعض البسط : إنه يأخذ على النحاة مثلاً أن الإعراب لا يجرى على أساس المنطق[1] . أتراه إذا ما تبين له أنه يجرى على أساس منطقى يرجع عن موقفه ؟ فماذا هو قائل إذن إذا عرّفناه أنه يجرى على منطق القياس : فكل من نفّذ الفعل أو تحقّق الفعل من خلاله يُضَمُّ آخره إن كان اسمًا مفردا أو مجموعًا بغير الواو / الياء والنون ، أو ينتهى بالواو إذا كان من هذا الباب الجمعىّ أو كان مما يسمى بالأسماء الستة فى حالة إفرادها وإضافتها لغير ياء المتكلم ، أو ينتهى بالألف إذا كان يدل على اثنين ... وقس على ذلك سائر الحالات فى الأسماء والأفعال . فإن شذّ شاهد عن ذلك كانت له قاعدته التى تبين سرّ شذوذه : إما لتخلف شرطٍ من الشروط، وإما لأنه يتبع لهجة قبيلة بعينها تخالف سائر العرب ، وإما لأنه شاهد شعرى يخضع لضرورات الوزن والقافية ، وإن كان هذا

(١) انظر « جناية سيبويه »/ رياض الريس للكتاب والنشر / بيروت / ٢٠٠٢م / ١٥ ـ ١٦ .

الوضعُ الأخيرُ من الندرة بحيث لا يعوَّل عليه .

صحيح أنه يمكن المجادلة بأنه لا منطق فى جعل الفاعل مضمومًا ، أو منتهيا بالواو أو بالألف ، أو فى جعل المفعولات مفتوحة، أو مكسورة (فى جمع الألف والتاء)، أو منتهية بالياء (فى حالة جمع المذكر السالم والمثنى)، أو بالألف (فى حالة الأسماء الستة)، وهذه حجة يميل كاتب هذه السطور إلى تقديرها والأخذ بها، بل لقد سبق أن رددتُ بها على ابن جنى ، ذلك اللغوى العظيم، فى معرض تحليلى لكتابه القيّم « الخصائص »[1]، ومن ثم فإنى لا أجد أية غضاضة فى سؤال المؤلف وجوابه التاليين : « ما هى العلاقة التى تربط الرفعَ (فيما يسمَّى « الأفعال الخمسة ») بثبوت النون ، والنصبَ أو الجزمَ بحذفها ؟ والجواب : لا علاقة البتة بينهما»[2] .

لكنى مع ذلك أسارع إلى الردّ بأنه لا بد ، فى كل مجال من مجالات الحياة ، من نقطة بدء يتم الاتفاق علها والتسليم بها ثم الانطلاق منها وجعلها قاعدة يقاس عليها ما يجدّ بعد ذلك من حالاتٍ تشبهها . مثلا لماذا كان ملعب كرة القدم مستطيلا بأطواله

---

(١) يرجع إلى كتابى « من ذخائر المكتبة العربية »/ دار الفكر العربى / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م / ١١٨ وما بعدها .

(٢) ص ٤٦ .

التى نعرفها ؟ ولماذا كانت كرة القدم مستديرة ، بينما كانت كرة الرجبى بيضية ؟ ولماذا هذه الاختلافات بين الملعبين فى هاتين اللعبتين وفى عدد أفراد كل فريق وفى الشروط التى تحكم اللعبة ؟ ولماذا كان عدد الصلوات خمساً ، وكانت الصبح ركعتين ، والمغرب ثلاثا ، وسائر الصلوات أربعا ؟ ولماذا يجوز قصر الصلوات الرباعية ولا يجوز ذلك فى الثنائية والثلاثية ؟ ولماذا كانت سنوات التعليم الابتدائى ستا ، وكل من المرحلتين الإعدادية والثانوية ثلاثا ، والجامعية أربعًا ؟ إن هذه كلها نقط انطلاق فقط ، ثم يبدأ المنطق فى القياس عليها .

ثم هل تنفرد لغتنا بأنه من الصعب أو ربما من المستحيل معرفة المنطق الذى وراء هذا الإعراب أو ذاك التصريف أو ذلك الاشتقاق مثلا؟ فما هو إذن ، يا ترى ، المنطق الذى يجعل الجملة فى اللغات الأوربية التى درسناها ، والتى من الجلىّ الواضح أن صاحب « جناية سيبويه » يعجب بها أشد الإعجاب ، هى جملة اسمية دائمًا ؟ ولماذا كان تصريف الأفعال فى هذه اللغة أو تلك منها على النحو الذى نعلمه ؟ ولماذا يختلف تصريف فعل الكينونة فى الإنجليزية عن سائر الأفعال ؟ ولماذا يشذّ تصريف بعض الأفعال عن نظيراتها ؟ ولماذا كان توليد الكلمات فى هذه اللغات يقوم بوجه عام على إلحاق المقاطع بأوائلها أو نهاياتها لا بالطريقة الاشتقاقية المتّبعة عندنا فى معظم

الحالات ؟ إن مثل هذه الأسئلة لا تنتهى . ولو أن أصحاب كل لغة ، حينما فكروا فى وضع نحو للغتهم ، عملوا على أن يمنطقوا هذه المسلّمات التى تنطلق منها وإلاَّ نبذوها وبحثوا عن لغة جديدة يتحقق فيها هذا الشرط ، لما صمدت لغة واحدة لهذا العبث ولكانت البشرية كلها لا تزال حتى الآن فى طور الإشارة باليد والتهتهة باللسان ، فعْل البُكْم ! فإن كان المؤلف يقصد بغياب المنطق هذا الذى أقوله هنا فهو متعنّت يَهْرِف بما لا يعرف ويُدْخِل نفسه فى مآزق لا يستطيع أن يسدّ فيها مسدّاً ، وليس هذا من شيمة العلماء الذين يقدّرون لأرجلهم قبل الخطو موضعها ، بل هو إلى النزق الطفولى أقربُ رُحْما . والآن ، وقد عرفنا أن اللغة العربية تجرى على منطق القياس فى إعراباتها واشتقاقاتها ، وإن لم يتبين لنا أنها تجرى عليه فى أساس هذه الإعرابات والاشتقاقات ، هل نطمع فى أن يرجع السيد أورون عن موقفه منها ؟

كذلك يدّعى الكاتب أن القرآن الكريم لا يخضع لقواعد اللغة ، قائلاً إن هذه القواعد هى من نتاج المخلوق ، على حين أن القرآن هو من كلام الخالق[1] . ثم يورد قرب نهاية الكتاب فى الفصل المسمّى «شواهد وتخريجات نحوية» أمثلة من الكتاب العزيز يرى أن ضبط

---

(١) ص ٢٢ .

بعض كلماتها لا يجرى حسب قواعد سيبويه[1] . وهو فى هذه الدعوى مخطئ خطأ أبلق لا يمكن الاعتذار عنه بحال ، فالقرآن الكريم يتبع فى كل كلمة منه القواعد التى تحكم اشتقاق الألفاظ وتركيب الجمل فى لسان العرب ، وإنّ اكتفاء المؤلف بما أورد من أمثلة قليلة لأعظم دليل على أنه لم يجد فى سائر الكتاب المجيد ما يمكن القول بأنه يخالف تلك القواعد . تُرَى هل رفع القرآن مفعولاً به أو نصب فاعلاً أو مبتدأ فى أى موضع منه أو أبقى نون فعل من الأفعال الخمسة رغم مجيئه بعد أداة نصب أو جزم مثلا ؟ أما الأمثلة التى زعم مؤلفنا المتمرد الهجّام أنها تخالف قواعد اللغة فلا مخالفة فيها على الإطلاق ، إذ يورد النحاة والمفسرون شواهد من شعر العرب وكلامهم تجرى على ذات الوتيرة بما يدل على أن القرآن الكريم ، فى هذه الشواهد أيضًا ، لا يخرج على أسلوب العرب فى اشتقاقاتهم وتراكيبهم . إن لكل حالة إعرابية فى لغة الضاد دلالتها ، فإذا ما وجدنا مثلا أن ضبط إحدى الكلمات فى جملة من الجمل قد أتى على غير ما هو شائع كان علينا التنبه إلى أن هناك نكتة بلاغية وراء هذا العدول عن الوضع العام إلى وضع خاصّ بُغية الإشارة إلى معنى ما أو الإيحاء بمغزى من المغازى لا يتحقق فى الأسلوب المعتاد .

---

(١) ص ١١٩ وما بعدها .

ولا ينفرد القرآن فى شىء من هذا لأنه ما من شاهد من الشواهد التى ساقها زكريا أورون للتدليل بها على أن القرآن لا يتبع قواعد لغة العرب إلا وقد أورد له علماؤنا القدامى أمثلة مشابهة من الكلام العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام . وحتى لو افترضنا أنهم لم يوردوا مثل هذه الأمثلة من كلام العرب فإن هذا لا ينبغى أن يُتَّخَذ برهانا على شذوذ الأسلوب القرآنى عن القواعد التى تحكم كلام العرب ، بل على أن الاستقصاء الذى قام به أولئك العلماء لكلام العرب فى هذه النقطة لم يكن استقصاءً كافيًا . وهذا أمر متوقع ، فهم بشر ، وكل جهد بشرى معرَّض للخطإ والسهو والنسيان والتقصير ، ولا يمكن فى تقدير عاقل أن نجعل من مثل هذه الأخطاء والتقصيرات تكأةً لرفض تلك الجهود ، وإلا وجب إدارة ظهورنا للحضارة البشرية جملة لأنها لم ولن ولا يمكن أن تخلو من الأخطاء !

أليس من العجيب أن يقول السيد أورون إن القرآن لا يجرى على قواعد النحو والاشتقاق ؟ فعلى أية قواعد إذن يجرى ؟ إن ذلك لهو الخَطَل بعينه سواء فى حكم المنطق الإنسانى أو فى حكم القرآن نفسه. ألم يمرّ الكاتب ، وهو يقلب أوراق المصحف الشريف ، بقوله عز شأنه مثلا : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » أو بقوله : «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» أو بقوله : « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ» ؟ وهل القواعد التى استخلصها النحاة هى للسان قوم آخرين غير العرب

الذين أُرْسِل إليهم محمد عليه الصلاة والسلام بذلك القرآن ؟ إذا كان فليدلنا المؤلف ، ونحن له منصتون ، ولعقولنا وقلوبنا فاتحون ، ولتغيير رأينا إن استبان لنا خطؤنا مستعدون . بالله هل يمكن قيام تفاهم بين طرفين إذا كانت قواعد اللغة التى يستخدمها كل منهما مخالفة لقواعد تلك التى يستعملها الآخر ؟ إنه لهو المستحيل بشحمه ولحمه إن كان للمستحيل لحم وشحم ! وهذا هو حكم المنطق الإنسانى بعد أن بيّنّا حكم القرآن الكريم .

ولنأخذ مثلاً أو اثنين من الأمثلة التى يدعى المؤلف أن القرآن قد خالف فيها قواعد العربية : فهو يقول إن «أمسى» و «أصبح» و «ما دام» و «كان» لا تكون عند النحاة إلا ناقصة ، أى تحتاج إلى مبتدإ وخبر ولا تكتفى بفاعل فحسب ، رغم ورودها فى القرآن تامّةً ، أى مكتفية بفاعل فقط ، مثل : «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» و «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ» و « وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ »[1].

وهذا الكلام منه لا يخرج عن أحد أمرين : إما الكذب وسوء الطوية للإساءة إلى النحو وعلمائه ، وإما الجهل الذى لا يليق بمن يتصدى لمثل هذه القضايا . وسوف أتركه يختار ما يحبّ منهما بنفسه لنفسه . ذلك أن النحاة قد ذكروا بكل وضوح أن «كان وأخواتها»

(١) ص ٣٠ ـ ٣١ .

(كلها تقريبا بما فيها «أمسى وأصبح وما دام» التى وقف عندها المؤلف) تأتى ناقصة ، وتأتى تامّة ، وضربوا (من بين ما ضربوه على إتيانها تامة) هذه الآيات الكريمات ذاتها . ولأنقل أولاً ما جاء فى «ألفية ابن مالك» فى هذا الموضوع ثم أقفّى على أثره بما قاله ابن عقيل وابن هشام فى شرح كلامِ ابن مالك ، ونص الألفية هو :

ومنْع سبقِ خبرِ « ليس » اصطفِى   وذو تمامٍ ما برفعٍ يكتفى

وما سواه ناقص ، والنقص فى   «فتئ، ليس، زال» دائماً قُفِى

وقد علق عليه ابن عقيل بهذه الكلمات : « وقوله : « ذو تمام ... إلى آخره » معناه أن هذه الأفعال انقسمت إلى قسمين : أحدهما ما يكون تاما وناقصا ، والثانى ما لا يكون إلا ناقصا . والمراد بالتام ما يكتفى بمرفوعه ، وبالناقص ما لا يكتفى بمرفوعه بل يحتاج معه إلى منصوب. وكل هذه الأفعال يجوز أن تُستعمَل تامة إلا «فتئ» و«زال» (التى مضارعها «يزال» لا التى مضارعها «يزول»، فإنها تامة ، نحو «زالت الشمسُ») و «ليس» ، فإنها لا تستعمل إلا ناقصة . ومثال التام قوله تعالى : « وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ»، أى «إن وُجد ذو عسرة» ، وقوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ» ، وقوله تعالى : «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ»[1]. أما ابن هشام فقد قال : «قد تستعمل هذه الأفعال تامة، أى مستغنية

---

(1) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد/ المكتبة العصرية / صيدا ـ بيروت / ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م/ ١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

بمرفوعها ، نحو «وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ»، أى وإن حصل ذو عسرة ، و«فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ»، أى حين تدخلون فى المساء وحين تدخلون فى الصباح، و«خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ»، أى ما بقيت، وقوله : «وبات وباتت له ليلة». وقالوا : «بات بالقوم» ، أى نزل بهم ، و «ظَلَّ اليومُ»، أى دام ظله ، و«أضحينا» أى دخلنا فى الضحى . إلا ثلاثة أفعال ، فإنها أُلْزِمت النقص ، وهى فتئ وزال وليس»[1] .

والعجيب أيضًا أن مؤلفنا المتمرد الهدّام الذى لا يعجبه النحو والإعراب ويشكك فى وجود قواعد تحكم لسان العرب قد كتب كتابه من مبتدئه إلى منتهاه على أساسٍ من تلك القواعد النحوية[2] التى تَخَيَّلها سيبويه وأضرابه بعد استقرائهم لكلام العرب وأشعارهم وللقرآن المجيد، وهو أبلغ ردّ على هذا التحذلق الفارغ بل التنطع المقيت الذى ملأ به صفحات كتابه .

---

(١) ابن هشام / أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / المكتبة العصرية / صيدا ـ بيروت / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م/ ١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .

(٢) وإن كان فى كتابه مع ذلك أخطاء ترجع إلى عدم اكتمال الأداة ، وليس إلى المبدإ الفاسد الذى يلحّ عليه فى مواضع كثيرة منه ، والذى يدفعنا إلى تغيير عنوانه من «الرفض التام لما فى النحو من أوهام» إلى «الوهم المأفون لزكريا أوزون» .

وأنت ، أيها القارئ الكريم ، حين تقرأ هذا الذى يقوله المؤلف ، يقُوم فى نفسك أن هدفه هو الدعوة إلى مزيد من تقصى كلام العرب كى تكون القواعد النحوية أكثر دقة وشمولاً فلا يفلت منها استعمال قرآنى أو شاهد شعرى . كما أنك حين تراه يَضيق صدراً بالوقت والجهد الذى يُنْفَق فى تعليم الطلاب الجُمَلَ التى لا محلَّ لها من الإعراب مثلاً[1] ما دام ذلك كله لن يأتى بأية ثمرة فى واقع الأمر ، (إذ ما الفائدة التى تعود على الطالب من معرفة أن هذه الجملة أو تلك لا محل لها من الإعراب إذا كانت معرفة ذلك أو الجهل به لن يترتب عليه صحة فى النطق أو الكتابة أو خطأ فيهما؟) يقوم فى نفسك أيضاً أن المؤلف يبغى تخليص النحو من الزوائد المرهقة فى غير طائل للمتعلمين ، وهما هدفان مشروعان بل يستحقان التشجيع والمعاونة . بيْدَ أنك تفاجأ فى مواضع مختلفة من الكتاب بأن المؤلف يدعو إلى إهمال الإعراب جملة وتفصيلا ، وهذه مقتطفات من أقواله تشهد بصدق كلامنا . قال فى ص ٣١ ـ ٣٢ : «إنه ليستوى عندى إذا قلت : كان أحمدُ فائزًا ، أو قلت : كان أحمد فائزٌ ، أو قلت : كان أحمد فائزٍ ، أو قلت : كان أحمدْ فائزْ» . وقال فى ص٦٦ : «إن علامة رفع المثنى أو جره أو نصبه (الألف والنون فى الرفع ، والياء

(١) ص ١١٦ .

والنون فى النصب والجر) لا أهمية لها عندى ، فسواء قلنا : «حضر الطالبان» أو «حضر الطالبيْن» فالفهم تم بأن من قام بفعل الحضور هما الطالبان (الطالبين) ، واستوعب السامعُ أن اثنين حضرا لا ثلاثة أو واحد مثلا . وقال فى ص٧٧ ساخراً من الإعراب : «يرتعد النحاة ويتضايقون إذا قال أحدنا : «إن الشمسُ ساطعةً» أو «كان الجندىً جريحٌ» ، ولكنهم يقبلون مصطلح «مفعول معه» . وكيف يتم إنجاز الفعل من قبل الإنسان والشارع معا ؟ » . وقال فى ص٨٧ : «إنه يستوى عندنا القول تماما فى الجمل اللاحقة : «جاء أبو وليد» ، «رأيت أبو وليد» (عوضا عن «أبا وليد») ، «مررتُ بأبو وليد» (عوضا عن «أبى وليد») لأنه ببساطة يمكننا اعتبار «أبو وليد» اللقب اسمًا علَمًا غير قابل للتبديل والتغيير» .

كذلك فأنت ، أيها القارئ الكريم ، عندما تقرأ مثل هذه العبارات قد تظن أن غاية مؤلفنا هى تسكين أواخر الكلمات أو إلزامها حالة واحدة من حالات الإعراب أو اتباع ما يحلو للقارئ من هذه الحالات كيفما يتفق له دون ضابط أو رابط ، لكنك تنظر فى مواضع أخرى من كتابه فتجد أنه إنما يريد إزاحة الفصحى وإحلال العامية محلها . وإليك بعضا من أقواله فى هذا السبيل : ففى ص١٤ مثلا يتساءل : «لماذا نشأت اللهجات العربية فى مختلف أرجاء الوطن العربى ولم تعتمد قواعد اللغة العربية ؟» ، ليجيب بعد ذلك بصفحتين قائلا إن الجواب « يكمن فى عدم استطاعة قواعد اللغة العربية أن

تؤدى دورها المطلوب ، بينما استطاعت لغتنا العريقة والجميلة أن تنتشر لتختلف اللهجات فيها انطلاقا من مفرداتها الغنية والكثيرة . فمثلا فى سوريا وفى مختلف أرجاء الوطن العربى يمكن لأى فرد عربى أن يفهم الحوار فى الأفلام والتمثيليات والبرامج المصرية علما أنها تتكلم اللهجة المصرية المحكية البعيدة كليا عما يسمونه اللغة العربية الفصحى (المقعّدة) ، والسبب ببساطة يعود لانتشار موجة الأفلام المصرية القديمة فى العالم العربى حيث ألفت أذن المواطن العربى سماع لهجتها ففهمها واستمتع بها . وأذكر هنا أننى كنت فى زيارة للقطر الجزائرى الشقيق ، ولم أستطع فى اليوم الأول أن أفهم لهجتهم المختلفة ، لكن بعد مرور أسبوع فقط من زيارتى وبعد أن ألفت أذنى سماع لهجتهم تمكنت من فهم أكثر من ثلاثين بالمائة منها ... وهكذا نجد أن ما نحتاج إليه هو أن تألف الأذن اللهجة وليس أن نتكلم بلغة منمقة مقعّدة . وقد يقول أحدهم الآن : هل تريدنا أن نتكلم باللهجة العامية ونترك اللهجة الأم واللغة الأم ، لغة القرآن الكريم؟ فأقول له : مهلا يا سيدى ، فأنت قد تركتها فى الواقع ، شئت ذلك أم أبيت[1] . والدليل على هذا وجود اللهجات المنتشرة فى كافة أرجاء الوطن العربى . وإن حوارك مع أفراد أسرتك أو

---

(١) انظر كيف يقول كاتبنا الذكى إننا قد تركنا لغة القرآن الكريم ، ومع هذا فإنه فى نهاية الكتاب يحاول استغفال القراء زاعماً أن نبدّنا للغة العربية شىء ، =

مع نفسك عندما تخطط وتفكر وتدبر هو بالعامية . حتى أحلامك تراها وتحكيها بالعامية . وما المشكلة إذا تمكنّا من فهم لهجات لغتنا العربية الجميلة واستوعبناها؟ وهل ألغى رسولنا الكريم محمد (ﷺ) لهجات القبائل عند بعثته ؟». وفى ص٤٢ نقرأ ما يلى : «وهنا أتذكر فعلا صحيحا مضعفا هو فعل «مَدَّ» ، فعند إسناد ذلك الفعل إلى الضمائر المختلفة لا نسمع أحدا من ناطقى اللغة العربية المحكية (العامية) من المحيط إلى الخليج يقول : «مَدَدْتُ» ، ونجدهم جميعا يقولون : مَدَّيت». وبالمثل نسمعه فى ص٤٦ يقول : « وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أكثر من نصف ناطقى اللغة العربية المحكية (العامية) يقولون للفتاة : «تلْعَبى» و «تكتبى» بإسقاط النون التى تدل على الرفع ، شاء ذلك النحاة أم أبَوْا ». وفى ص١٤٠ يقول : «إذا قال أحدنا : «أكل أحمدَ التفاحةُ» (بنصب الفاعل ورفع المفعول به) فلا

= وحفاظنا على لغة القرآن شيء آخر ، إذ هو (كما يقول) صيغة تعبيرية لا مجال لمناقشتها (ص١٧١) . وهو كلامٌ قاله غيره من أعداء العروبة والإسلام قبلا (مثل ولهلم سبيتا الألمانى فى كتابه «قواعد العامية العربية فى مصر» ، ولم يدخل عقل أحد ، فهل ينجح أورون فيما فشل فيه هؤلاء ، وقد كانوا أكثر منه ثقافة وذكاءً وخبثا ؟ لا إخال ذلك دهر الداهرين ! وبالله كيف يمكننا فهم القرآن الكريم بعد أن نكون قد تركنا اللغة الفصحى المكتوب بها واصطنعنا عامية الشوارع التى لن تكون ثمة علاقة بينها وبين لغة القرآن آنذاك؟ إن هذا هو منتهى الاستغفال !

أحد منا يقول إن الفاعل هو «التفاحة»، وإن المفعول به هو «أحمد» بالرغم من مخالفة حركات أواخر الكلمات لاشتراطات النحاة . وهنا نأمل ألا يجيب أحدهم قائلاً : ولكن كيف نعرف الفاعل فى قولنا : «قتل أحمدَ زيدٌ» أو العكس «قتل أحمدُ زيدًا» ؟ هنا أجيب وبأعلى صوت : الفاعل هو الذى يأتى أولا، وأوقفوا هذه التخريجات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وما غايتها إلا إضاعة الجهد والوقت والمغالطة! وهل يستخدم القضاة فى بلادنا العربية قواعد سيبويه النحوية ليعرفوا القاتل من المقتول عند استجواب الشهود الذين لا يحركون أواخر الكلمات فى اللهجة العربية الدارجة ؟» .

من هذه المقتبسات أرجو أن يكون قد تبيَّن مدى الاضطراب الذى يسود دعوة الكاتب ، وإن كنتُ لا أستبعد مع ذلك أن يكون قد قصد هذا قصداً (قصده بنفسه أو قُصِدَ له) بغية التعمية على وعى القارئ وتخديره كى يتسرب الغَزَل التى يتغزله فى العامية الدارجة إلى نفسه بهدوءٍ ودون استفزاز فلا يقف فى وجهه رافضًا مستنكرًا . ومعروف أن الدعوة إلى العامية ذات تاريخ معروف ومُرِيب فى العصر الحديث ، وقد تولَّى كِبْرَها عدد من المستشرقين والمبشرين ومن جرى فى ذيلهم من أبناء جلدتنا الذين يتسمَّوْن بأسمائنا لكنهم يطوون كشوحهم على مستكنَّةٍ من الحقد على الإسلام ولسانه العربى الذى

تشرف بكتابه الكريم . وإن الإنسان ليتساءل : ترى أية عامية تلك التى يريد هؤلاء أن يُحلوّها محل الفصحى ؟ إن العاميات العربية لا تكاد تُحْصَى[١] ، ومعنى هذا أن يصبح للعرب لغات بعدد أقطارهم على أقل تقدير ، وبدلا من أن يظلوا أمة واحدة سيُضْحُون أمما تقارب الخمس والعشرين . ثم إن كل عامية من هذه العاميات ، بعد أن تستحيل فُصْحَى ، سوف ينشعب منها بدورها عدد غير قليل من العاميات يستخدمها الناس فى حياتهم اليومية ويجرون فى استخدامهم إياها على السليقة أو ما يشبه السليقة[٢] ، على حين يجب عليهم أن يتعلموا قواعد الفصحى التى سوف تضيق بها صدور نفر من أبنائها كما يضيق صدر زكريا أوزون وأمثاله بقواعد الفصحى الحالية ويَدْعُون

---

(١) وهذا أمر اعترف به المستشرقون قبلنا بزمن طويل ، فها هو ذا سبيتا المستشرق الألمانى فى ١٨٨٠م يعلن أنه لم يستطع الإلمام بالعامية المصرية لتعدد لهجاتها واختلافها من بلد إلى بلد ، ومن حىّ إلى حىّ . ولذلك فمن المحال أن يلم بكل لهجاتها ، بل إنه لمن المحال أيضًا أن يلمّ باللهجات المتعددة فى أنحاء القاهرة وحدها . انظر د. نفوسة زكريا سعيد / تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر / دار نشر الثقافة / الإسكندرية / ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م/ ٢٠ .

(٢) أقصد أنهم يتحدثون دون أن يفكروا فى أن لها قواعد تنظّم صياغة مفرداتها وتراكيب جملها وبناء صورها رغم وجود هذه القواعد . إلا أنهم ، بسبب تلقيهم إياها شفويا وممارستهم لها فى كل أغراضهم وحاجاتهم اليومية بسهولة ويسرٍ متناهيين ، يظنون ألاّ قواعد لها تضبطها وتحكم استعمالاتها .

إلى اطّراحها واستبدال إحدى عامياتها بها ... وهكذا دواليك ، فهل يصبح قَدَر لغتنا أن تتغير كل عدة أجيال ؟

وإن القول بتحول العامية عند اتخاذها لغة للكتابة والأدب إلى فصحى وتولّد العاميات منها بدورها ليس كلاما نظريا ، فعندنا مثلا اللاتينية التي كانت فُصْحَى كثيرٍ من الأمم الأوربية لأجيال وأجيال ، وكان لها عامياتها المختلفة ، ثم لما اتخذت كل أمة من تلك الأمم إحدى عامياتها فصحى لها تستعملها في آدابها وكتاباتها ، كالفرنسية والإيطالية والإسبانية ، أصبح لكل واحدة من هذه اللغات بدورها عدة عاميات . فإذا ما وقع ذلك للغتنا ، لا قضى الله به[1]، فعندئذ تنفصم

(١) ولن يقضي الله به ، وذلك بفضل القرآن وبركته . وهذا الكلام لا نقوله نحن المسلمين وحدنا بل يقوله قبلنا نصارى العرب الغيورون على هذه اللغة العبقرية العجيبة التي استثناها الله من التحلّل والتفرع إلى لغاتٍ شتى تزيحها وتأخذ مكانها كما وقع للاتينية وغيرها . يقول سليمان البستاني : « إن سُنّة النمو والتحول وتفرع الأصل الواحد إلى أصول شتى تشمل اللغات كسائر المخلوقات ، فقد قلنا إن لسان العرب في الجاهلية تفرّع إلى فروع كاد كل منها يقوم لغة بنفسه ويمتنع التفاهم بين أصحابه ، فجاء القرآن وأزال الخلاف وأوثق عُرَى الارتباط فسادت اللغة العربية ». وبعد أن يتحدث عن اليونان وابتعاد لغتهم الحديثة عن أمها القديمة يعقب بقوله : «وأما العربية فليس هذا شأنها ، فإن أصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية . وغاية ما يُشْكِل فهمه على قرائها مفرداتٌ لم تألفها العامة ومترادفاتٌ متشابهاتٌ وتعابير غير مألوفة في عصرنا ... وخلاصة ما تقدم أن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمرا وأقدمهن=

= عهدا ، والفضل فى كل ذلك للقرآن . فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علو منزلتهما لم تَقُمْ للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى فى بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعى ، ولكن القرآن وطّد أركان لغة قريش فى بلادهم وأذاعها فى جميع البلاد العربية وسائر البلاد التى طال فيها عهد الاحتلال (ا) الإسلامى أو كَثُرَتْ مخالطة العرب الضاربين فى أقطار الأرض للجهاد والتجارة » . (سليمان البستانى / إلياذة هوميروس / دار إحياء التراث العربى / بيروت / ١ / ١١٣ ـ ١١٥).

وكتب جرجى زيدان فى سنة ١٨٩٢م مقالا يرد فيه على دعوة وليم ولكوكس الإنجليزى إلى استبدال العامية بالفصحى والحَذْو فى ذلك حَذْو الإنجليز ، الذين هجروا اللاتينية واصطنعوا لهجة محلية بدلا منها . وقام رد زيدان على أن اللاتينية كانت بالنسبة للإنجليز لغة غريبة بخلاف العربية بالنسبة للعرب ، إذ هى لغتهم القومية ، وبغيرها لا تقوم لهم وحدة . وهنا لا ينسى زيدان الإيماء إلى دور القرآن فى حفظ لسان الضاد فيقول : «لولا القرآن والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه فى إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربى كما حصل فى الأمم التى كانت تتكلم اللاتينية » . ثم يضيف قائلا إن «العامية منحطة عن الفصحى كثيرا وليس لها أن تقوم مقامها ، فإنها أرقى لغات العالم» (مختارات جرجى زيدان / مطبعة الهلال / القاهرة / ١٩٣٧م/ ١٨٧ ـ ١٨٩).

وكمثلهما فى الضيق بالعامية بل أشد وأعنف كان خليل مطران ، الذى كتب يقول : « تالله لو ملكتُ تلك العامية لقتلتها بلا أسف ، ولم أكن بقتلى إياها إلا منتقمًا لمجد فوق كل مجد نزلتْ من هيكله الذهبى الخالص الرنان منزلة الرِّجْلَين الخزفيتين القذرتين ، فهو فوقهما متداعٍ وبهما مشوَّه، منتقماً لأمة كسرت العاميةُ وحدتَها ، وكانت عليها أكبر معوان للتصاريف التى مزقتها فى الشرق والغرب كل ممزق ، منتقما للفصاحة نفسها . وأية فصاحة فى خشارة لا نصيب فيها من تبر الأصل إلا وقد تلوثت بذُرّيراتٍ لا تُحْصَى من أوضار الرطانات بأنواعها » (من مقدمة ترجمته لمسرحية «عطيل » لوليم شكسبير/ القاهرة / ٨).

عروة من عُرَى الأخوة الوثقى بين الشعوب العربية ، وعندئذ لن يكون هناك مجال لاستخدام عبارة مثل « القطر الجزائرى الشقيق » التى وردت فى كلام المؤلف عند تجربته مع اللهجة الجزائرية مما مرّ آنفا ، إذ ما الأساس الذى ستستند إليه تلك الأخوة الشقيقة بين الشاميين والجزائريين إذا ما نُسِف الأساس اللغوى وأصبح كل من الطرفين يتكلم لغة غير اللغة التى يتكلم بها الآخر ولم تعد هناك إمكانية للتفاهم اللغوى المباشر بينهما ؟

إن اختفاء الفصحى سوف يعقبه انفراط العاميات العربية المختلفة كما تنفرط حبات المسبحة بانقطاع السلك الذى ينتظمها فتنطلق كل منها فى مدار خاص بها بعيداً عن مدار كل لهجة من اللهجات الأخرى بعد أن كانت جميعها تدور حول الفصحى وتَحُور إليها بحيث يمكن لأى فرد من أى شعب عربى ، بعد قليل من الزمن والجهد ، أن يفهم لهجة أى شعب آخر من خلال ربطها بالفصحى ، التى هى بمثابة الأم لكل هذه اللهجات ، وتفسيرها فى ضوئها . وهذا بالضبط ما حدث للعاميات اللاتينية التى أصبحت لغاتٍ مستقلة ينبغى على المتكلم بأى منها أن يتعلم باقيها تعلُّمًا ، فِعْله مع أية لغة غريبة عليه . وفى نفس هذا المعنى يقول د. إبراهيم أنيس : « اللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية

تنتمى إلى بيئة خاصة ... وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعًا فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسّر اتصال أفراد هذه الهيئات بعضهم ببعض وفَهْم ما قد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات ... (و) متى كَثُرَتْ هذه الصفات الخاصة بَعُدَتْ باللهجة عن أخواتها فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها»[1].

أما هجوم الكاتب على العربية الفصحى لكونها «لغة منمّقة مقعّدة» فيقوم على وهم عجيب لا يصحّ أن يسكن عقل من كان لديه مُسْكة من فهم ومنطق ، ألا وهو أن اللهجات العامية تخلو من التقعيد. إنه ما من لهجة عامية فى أى بلد من بلاد اللّه إلا ولها قواعدها ونظامها اللغوى فى الكلمة والجملة والصورة وما إلى ذلك ، وإن ظنّ بعض السطحيين أن الأمر بخلافه . وكى أقرّب المسألة للقارئ وأختصر الطريق أذْكُر أنى قرأت بعض الكتب التى ألفها نفر من المستشرقين لهذه اللهجة العامية أو تلك من لهجات العرب فوجدتهم يفيضون فى شرح نحوها وصرفها ويذكرون قواعد لذلك لا تقل ، إن لم تزد ، فى تفصيلاتها عن قواعد العربية الفصحى . وقد

---

(١) د. إبراهيم أنيس / فى اللهجات العربية / ط٤ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٦ ـ ١٧ .

سبق أن لمست هذه النقطة لمسًا خفيفًا فى أحد الهوامش التى مرّت غير بعيد. ومن هؤلاء من ألف فى قواعد العامية المصرية كتابا ضخماً لا يقل حجما عن كتاب ابن عقيل، بل ربما كان أضخم منه[1].

ولا شكّ إن ذلك الهجوم الذى شنّه زكريا أوزون على الفصحى فى كتابه الذى بين أيدينا ودعوته إلى نبذها لهو أعظم دليل على فساد زعمه المبطل الصفيق الوجه بأننا قد تركناها فى الواقع فعلاً، إذ لو كنا قد تركناها كما يقول فلماذا يعنّى نفسه ويقذف بها فى الصعب والوعر كل هذا القذف من أجل إقناعنا بنبذها ؟ هل المنبوذ يحتاج إلى نبذ، بل هل يمكن نبذه ؟ إن هذا مثل تضييع الوقت والجهد والتفكير والمال فى محاولة قتل المقتول ! كلاهما حماقةٌ وقلة عقل ! وبغض النظر عن هذا التناقض المضحك فإننا لا ندرى إلى أى أساس يستند السيد أوزون فى دعواه الرعناء بأننا قد تركنا استعمال

---

(١) وها هى ذى أسماء بعض الكتب الإنجليزية فى نحو عدد من العاميات العربية مما وجدته فى مكتبة جامعة قطر :

- Spoken Arabic (David Harvey).
- Colloquial Arabic of Egypt (Russell McGuirk) .
- Gulf Arabic (Clive Holes).
- A Short Reference Grammar of Gulf Arabic (Hamdi A. Qafisheh).
- A Basic Course in Gulf Arabic (Hamdi A. Qafisheh) .
- Gulf Arabic - Intermediate Level (Hamdi A. Qafisheh) .

وفى مكتبتى الخاصة بالقاهرة كتب أخرى فى قواعد هذه العامية أو تلك لبعض المستشرقين الإنجليز والفرنسيين .

الفصحى فى واقع الأمر[1] . إن الواقع الصحيح أننا لم ننبذ الفصحى قط ، بل الملاحظ أن اللهجات العامية قد أصبحت ، بفضل انتشار التعليم ، أقرب إلى الفصحى منها طوال قرون التخلف الفكرى التى سبقت النهضة الحديثة . كما أن الفصحى تغادى الآن أسماع العوامّ وتراوحها فى الخطب السياسية وفى نشرات الأخبار وبرامج التحليل السياسى والاقتصادى والعسكرى والأدبى والأحاديث التى يلقيها الكتاب والمفكرون والنصوص الأدبية التى تُخْتَار للقراءة فى المذياع والمرناء ، وكذلك فى المسرحيات والتمثيليات والأفلام والأغانى والأناشيد الناطقة بها ، وما أكثرها ... إلخ . أى أن الفصحى لم تعد وَقْفًا على حلقات الدرس والندوات وخطب الجمعة مثلا ، بل أضحت تغزو البيوت وتقتحم على العامة آذانهم وعقولهم اقتحامًا . كما أن التأليف العلمى ، وكذلك التأليف الأدبى أيضًا (اللهم إلا بعض الأغانى والمسرحيات) لا يصطنعان إلا الفصحى ، كل ذلك فى سيل منهمر تَهضِب به المطابع يوميا فى هيئة كتب وصحف ومجلات ونشرات وإعلانات وإرشادات مما لم تكن العصور القديمة تعرف شيئا منه .

(١) وهو هنا ينطلق مما يدعيه بعض المستشرقين من أن الفصحى قد انهزمت فى الواقع أمام العامية، فلا معنى إذن للعناد والتمسك عبثا باللغة المهزومة . قال ذلك مثلا وليم ولكوكس الإنجليزى فى محاضرة له بالقاهرة سنة ١٨٩٣م نشرها فى مجلة «الأزهر» آنذاك .

ليس ذلك فحسب ، بل إن من علماء الدين الإيرانيين والباكستانيين والهنود والأفارقة من يؤلفون ويتحدثون العربية الفصحى كأحسن ما يكون . أى أن الفصحى ليست باقية فى البلاد العربية فقط بل ما زالت مستعملة فى بعض النطاقات العلمية خارجها أيضاً . ومن المعروف أن ثمة دولا إسلامية تتخذها لغة ثانية لها وتدرّسها فى معاهدها العلمية على هذا الاعتبار ، كما أن فى كثير من الجامعات المختلفة حول العالم أقسامًا لدراسة العربية وتراثها الأدبى والفكرى ، كما هو الحال مثلاً فى إيران وأندونيسيا وبروناى وأوزبكستان وكينيا ونيچيريا واليابان وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ... إلخ ... إلخ . بل إنها تدرّس فى المرحلة الثانوية فى بعض البلاد الأوربية بوصفها لغة أجنبية ثانية كما ندرس نحن فى مصر الألمانية والإسبانية والإيطالية مثلاً إلى جانب الإنجليزية ، التى تأتى عندنا عادة فى المرتبة الأولى بين اللغات الأجنبية . فهل من المعقول أن يجهل هذا كله السيد أوزون ؟ فلم إذن يتصدى لما لا يحسن ؟ ألا رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه !

بل إن القراء من العامة ، مَثَلُهم مَثَلُ الخواصّ ، لا يعرفون إلا القراءة بالفصحى ، وإذا ما وقع فى أيديهم نصٌّ لأغنية عامية مثلا صعُبَ عليهم قراءته قليلا أو كثيرا . ذلك أننا لم نتعود القراءة بالعامية، بل لم نفكر بعد فى وضع قواعد إملائية لها كما هو الحال

فى الفصحى ، وكلٌّ يكتبها فى العادة كما يتفق له ، اللهم إلا فى الكلمات التى لا يوجد فرق فى النطق بينها وبين الفصحى ، مثل « أرْض » و « وَجَع » و « حَضَر » و « قام » و « عَلَى » و « مِنْ » وأشباهها .

فى ضوء هذا يمكننا أن نفهم ردّ توفيق الحكيم على الغربيين الذين يحاولون الإيهام بعمق الهوة بين الفصحى والعامية عندنا زاعمين أن لغة الضاد فى طريقها إلى الزوال ، إذ يقول إن « الواقع الذى ألاحظه اليوم ولاحظه كثيرون هو بعكس هذا الزعم ، فالعامية هى المقضىّ عليها بالزوال ، والفارق بينها وبين الفصحى يضيق يوما بعد يوم . ويكفى أن نستمع إلى فلاحنا أو عاملنا فى مجلس الأمة أو مجالس الإدارة ليتضح لنا أن لغة الكلام العادى قد ارتفعت إلى المستوى الفصيح »[1] .

من هذا يتضح للقارئ أشد الوضوح أن كل ما قاله زكريا أورزون لا يعدو أن يكون هراءً لا رأس له ولا ذَنَب ! على أنْ ليس معنى هذا أننى أزعم أن القدرة على استعمال الفصحى عند كل من يستعملونها هى فى المستوى المنشود . ولذلك أسبابه وعوامله التى يأتى على رأسها

---

(١) توفيق الحكيم / مسرحية « الورطة » / مكتبة الآداب / ١٧٠ (من الكلمة الموجودة فى آخر الكتاب بعنوان « لغة المسرحية »).

ضعف الشعور بالعزة القومية من جراء الوقوع تحت نير الاستعمار عشرات السنين(1) ، فضلاً عن أن قرون التخلف الفكرى والأدبى التى بسطت ظلامها الحالك على الأمة العربية قد باعدت بينها وبين الثقافة الراقية وآدابها ووعائها اللغوى المتمثل فى الفصحى. ثم لا ننس أننا الآن لا نهتم بتجويد شيء أو إتقانه ، يستوى فى ذلك الصناعة والزراعة والتعليم . فنحن لسنا ضعفاء فقط فى الكتابة بالفصحى والنطق بها ، بل نحن ضعفاء فى كل العلوم والمجالات ، وحتى فى ميدان اللعب والرياضة ، بل حتى فى مجال جمع القمامة من الشوارع ! وفى ظل هذه الأوضاع المتردية لا يُتَوَقَّع أن يشذ العرب فى

---

(1) من ذلك أن الطلاب المتفوقين فى المرحلة الجامعية لا يُقْبِلون عادة على التخصص فى لغتهم القومية وآدابها . وأضرب لذلك مثالين : أولهما حين دخلت جامعة القاهرة فى أكتوبر ١٩٦٦م ، ثم بدا لى بعد أيام أن أحوّل أوراقى من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (كلية القمة لطلاب القسم الأدبى) إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب . وقد قوبل هذا التصرف بالدهشة الشديدة حتى من موظفى كلية الآداب نفسها ، كما اشتهرتُ بين طلاب المدينة الجامعية (حيث كنت أسكن) بأننى الطالب الذى تهور وأقدم على التحويل من كلية السياسة والاقتصاد إلى دراسة اللغة العربية . والثانى ما نسمعه من كثير من طلاب أقسام اللغة العربية من تألمهم للنظرة التى ينظر بها إليهم الطلاب الآخرون، إذ يسمونهم بـ « المشايخ » ، يقصدون أنهم جامدون متخلفون عن العصر وحركته واهتماماته !

أمر لغتهم فيتقنوها فى الوقت الذى لا يكادون يبرعون فى أى شىء ، اللهم سوى الادعاءات الفارغة والتشدق بالإنجازات الوهمية . وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الكتاب والأدباء يخطئون كثيراً إذا كتبوا أو قرأوا مما لم يكن للعرب به عهد فى عصور عزهم وقوتهم ، بدليل أن كل المؤلفات التى تركوها خلفهم تخلو من هذه الظاهرة المؤسفة التى نشكو منها فى العصر الحديث .

ورغم ذلك كله فإن هذا العصر الحديث نفسه قد حَظِىَ بأسماء لامعة فى عالم الأساليب الأدبية تُسامتُ أعظم الأسماء فى الأدب العربى القديم ، نستطيع أن نذكر فيها بكل فخر واعتزاز الشدياق وشوقى وحافظ وسليمان البستانى والرصافى والمنفلوطى وشكيب أرسلان وجبران والرافعى ومىّ زيادة والبشير الإبراهيمى والفاضل بن عاشور ومحمد الغزالى وفريد أبو حديد ومحمود تيمور وشفيق جبرى والعقاد والمازنى وطه حسين والزيات ومحمد كرد على وخليل مطران والجواهرى وأبو القاسم الشابى وباكثير وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور ومحمد مزالى وناصر الدين الأسد وعادل زعيتر ومحمد عزة دَرْوَزَة وسيد قطب وبنت الشاطئ ومحمود شاكر وإبراهيم طوقان وصالح جودت ونازك الملائكة وعبد الكريم غلاب وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد الله ونّوس ومحمود المسعدى وجواد على وغازى القصيبى ... إلخ ... إلخ ، وهى مفارقة ، ولا شك ، عجيبة ، لكنها حقيقية رغم ذلك !

كذلك مرَّ بنا قول زكريا أوزون إنه لا فرق بين أن نقول : « قتل

أحمدَ زيدٌ » أو قتل أحمدُ زيداً »، إذ العبرة عنده بموضع الفاعل والمفعول فى الجملة ، حيث يأتى الفاعل أولا ثم المفعول بعده . وهذا كلام قد قاله من قبله د. إبراهيم أنيس ، فهو إذن لم يأت بشىء من عنده ، وإن لم يشر إلى الدكتور أنيس من قريب أو من بعيد . قال الأستاذ الدكتور فى كتابه « من أسرار اللغة »، وهو الكتاب الذى عقد فيه فصلا طويلا حاول فيه عبثًا أن يثبت أن العرب بوجه عام كانت تقف على أواخر الكلمات بالسكون ، وأن الإعراب شىء طرأ على لغتنا أواخر القرن الأول للإسلام أو أوائل الثانى ، وأنه ليس له فى حقيقة الأمر رغم هذا أى مدلول[1]: « نكتفى ... ببيانٍ قصيرٍ عن موضع الفاعل من الجملة وموضع المفعول منها كى نبرهن على أن الفاعل لا يُعْرَف بضم آخره ، ولا المفعول بنصب آخره ، بل يُعْرَف كل منهما فى غالب الأحيان بمكانه من الجملة الذى حددته أساليب اللغة وما رُوِىَ عنها من آثار أدبية قديمة ، فإذا انحرف أحدهما عن موضعه تتبعناه فى موضعه الجديد فى سهولة ويسر ودون لبس أو إبهام لأن الجملة حينئذ تشتمل على ما يرمز إليه ويدل عليه ، وذلك لأن التركيب مع هذا الانحراف قد تتغير معالمه أو لأن ظروف

(١) انظر الكتاب المذكور / ط ٦ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٧٨م/ ١٩٨ وما بعدها ، و ٢٣٧ وما بعدها .

الكلام توحى به وترشدنا إليه »[1]. ثم يمضى قائلا إن الفاعل فى الكلام العربى يلى الفعل ويسبق المفعول ، ولا يتأخر الفاعلُ إلا فى أسلوب القصر مثل « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ » ، أو حين يطول الكلام مع الفاعل وتوابعه مثل «إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا» ، أو حين يشتمل الفاعل على ضمير يعود على المفعول مثل « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ » ، أو حين تتطلب الفاصلة ذلك مثل « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ » ، أو حين يكون الفاعل كلمة كريهة يحسن تأخيرها مثل « الموت » أو « الضر » كما فى قوله تعالى : «جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» ، « فَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا »[2].

وللدكتور أنيس شهرة واسعة ، وعلى كلامه الذى اقتبسناه أو لخّصناه فيما مضى مِسْحَةٌ توهم بأنه يتبع المنهج العلمى ، لذا فلا بد من وقفةٍ هنا نناقش فيها ما جاء بذلك الكلام من أفكارٍ : فأول كل شىء أنه يقول إن الفاعل يأتى دائماً قبل المفعول إلا فى الحالات التى أوردها وما يشبهها . ولكنه لم يعتمد إلا على القرآن الكريم ، ولم يقل أحد إن القرآن يستغرق كل إمكانات اللغة ، وهذا إن صحت ملاحظة الأستاذ الدكتور . إن هناك الشعر ، وهناك الأمثال ، وهناك

---

(١) المرجع السابق / ٢٤٣ .

(٢) السابق / ٢٤٣ ـ ٢٤٧ .

ما أُثِر عن العرب من خُطَب سياسية واجتماعية ودينية ، فهل مسح سيادته هذا كله وتأكد لديه أن ما قاله صحيح ؟ الحق أنه للأسف الشديد لم يفعل شيئا من ذلك ! ورغم هذا كله فسنتناول حججه لكى نرى مدى صلابتها : فبالنسبة للقصر نتساءل : ولماذا لم يَجْرِ العرب فى هذا الأسلوب على طريقتهم التى مَرَدُوا عليها من تقديم الفاعل على المفعول ، مع التصرف بطريقة أو بأخرى على نحو يفيد ما يريدونه من قَصْرٍ رغم ذلك كأن يقولوا مثلا فى « وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ » : «والله وحده هو الذى يعلم تأويله» ؟

أما فيما يخصّ طول الفاعل ، فأى ضير فى أن يقال : « إما يبلغن عندك أحدُهما أو كلاهما الكِبَر » بدلا من تقديم « الكِبَر » (المفعول) على « أحدهما أو كلاهما » ؟ الواقع أنه ما من ضَيْرٍ أىّ ضير فى ذلك ! وهذا هو القرآن قد تكرر إتيانه بالفاعل قبل المفعول رغم طول الأول بسبب توابعه أو متعلقاته وقِصَر الثانى ، بل لقد تأخر الفاعل فيه لغير سبب من الأسباب التى ذكرها الدكتور برغم طول المفعول . وهذه أمثلة على الذى نقول : « وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ »(١)، «لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »(٢)،

---

(١) آل عمران / ١٨٠ .

(٢) النساء / ١٧٢ . ولم يمنع طول الفاعل مع تابعه أن يسبق الفاعلُ وحده المفعولَ، ثم يأتى تابعه بعد ذلك .

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾[1] ، ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[2] ، ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[3] ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾[4] ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[5] ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾[6] ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾[7] . أما اشتمال الفاعل على ضمير يعود على المفعول كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ فقد كان من الممكن أن يُحَوَّر التركيب كيلا تنكسر القاعدة التى توهَّمها الأستاذ الدكتور ، فيصبح الكلام على النحو التالى : ﴿ وإذ ابتلى ربٌّ إبراهيم إياه ﴾ وتُلْغَى جميع الضمائر المتصلة التى يستلزمها تقدم المفعول على الفاعل .

---

(١) المائدة / ٢ . ولم يمنع طول الفاعل ومتعلقاته أن يسبق ﴿ أن تعتدوا ﴾، وهو فى مقام المفعول الثانى .

(٢) الأنعام / ١٣٧ . أما مشكلة عَوْد الضمير فى الفاعل ﴿شركاؤهم﴾ على ﴿المشركين﴾ ، التى تأتى فى التركيب المعتاد بعده ، فيمكن التغلب عليها بصياغة الكلام هكذا : ﴿وكذلك زين شركاءُ المشركين لكثير منهم قَتْلَ أولادهم﴾.

(٣) الأعراف / ١٩ .　　　(٤) الأنفال / ٥٠ .

(٥) هود / ٦٧ .　　　(٦) سبأ / ٣١.

(٧) الجاثية / ١٠ . والتركيب هنا كالتركيب فى الآية ١٧٢ من ﴿ النساء ﴾.

وبالمناسبة فإن الضمائر واختلافها ما بين ضمائر خاصة بالفاعل وأخرى خاصة بالمفعول لهى عقبة كأداء فى طريق النظرية التى تخيلها د. أنيس تخيُّلاً وحاول أن يفرضها على لسان الضاد بقوة الاعتساف ومن خلال سلسلة من الأوهام العجيبة ، إذ لو كانت الحركات التى فى أواخر الأسماء لا تدل على أى معنى كما يدَّعى فلماذا اختلفت ضمائر الفاعلين عن ضمائر المفعولين ، وهى مما لا يمكن القول معه بأن العرب إنما كانت تقف على كل كلمة بالسكون إلا أن يضطرها الحرص على سلاسة النطق لا غير إلى تحريك آخرها تفاديًا لالتقاء الساكنَين دون أن يكون فى هذا التحريك ما يدل على معنًى كالفاعلية أو المفعولية أو ما إلى ذلك ؟ ثم إن الأمر لا يقتصر على تقدم المفعول على الفاعل فى هذه الحالات القليلة التى ذكرها سيادته، إذ كثيرا ما يتقدم المفعول حتى على الفعل . وفى القرآن شواهد كثيرة على هذا، ودعنا من الشعر الآن والنصوص النثرية الأخرى . وكذلك عندنا المبتدأ والخبر اللذان قد يتبادلان موضعيهما، بل كثيرا ما يأتى الخبر قبل « كان » وأخواتها . ولا ننس الحال والمفعول المطلق مثلا وتقدُّمهما على الفاعل وحده أو عليه والفعل معاً. ولا يضبط الأمر فى هذا كله إلا القولُ بالإعراب ، لأن هذه الحرية التى لا نجدها إلا فى تركيب الجملة العربية تتطلب ذلك تطلبا .

ونأتى إلى الآيات التى يقول الأستاذ الدكتور إن المفعول فيها

تقدم على الفاعل لأن في الفاعل ما يُكْرَه المبادأة به ، وجوابنا على ذلك هو الشواهد القرآنية الغالبة التي أتى فيها ذكر « الموت » قبل « الحياة » (التي كان ينبغي ، حسب نظرية الدكتور ، أن تكون لها الأولوية عليه) : « إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا »[1] ، « وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا »[2] ، « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا »[3] ، « قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ »[4] ، « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »[5] . ومثلها الآيات التي سبق فيها « الضُّرُّ » « النَّفع » رغم كراهية النفوس للمعنى الأول وحبها للثاني ، وهي : « وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ »[6] « وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا »[7] ، « قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا »[8] ، « قُلْ إنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا »[9] ، « قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ »[10] .

هذا في وجه التشابه بين الكتابين ، إلا أن د. أنيس يعلن أنه

---

(١) المؤمنون / ٣٧ .
(٢) الجاثية / ٢٤ .
(٣) النجم / ٤٤ .
(٤) غافر / ١١ .
(٥) الملك / ٢ .
(٦) البقرة / ١٠٢ .
(٧) الفرقان / ٣ .
(٨) الفتح / ١١ .
(٩) الجن / ٢١ .
(١٠) الأعراف / ٩٥ .

لا يبغى ، من وراء قوله بأن الإعراب لم يكن موجوداً فى العربية ثم طرأ عليها بعد ذلك فى أواخر القرن الأول للهجرة أو أوائل الثانى بفعل علماء النحو[1] ، أن يلغى الإعراب ، بخلاف السيد أوزون ،

(١) أى أنه أمر اصطناعى فُرِض فرْضا على العرب ولغتهم وآدابهم وتآليفهم شعرا ونثرا بل على القرآن ذاته بما يفيد أن المسلمين قد أدخلوا على القرآن ما ليس فيه ، وهو كلام لا ينقضى منه العجب والدهش ، إذ معناه أنهم لم يخرجوا عن أن يكونوا واحدا من فريقين : فهم إما أناس أزالوا القرآن عن وجهه الأصلى ، وإما أناس رأوا ذلك ووافقوا عليه أو (فى أحسن تقدير) لم يرضوه ولكنهم أطبقوا أفواههم فلم ينبسوا ببنت شفة اعتراضا على ذلك . وهذا كله هو المستحيل بعينه، فالمسلمون كانوا يقدسون القرآن وما زالوا تقديسًا عجيبًا لم تقدسه أمة من الأمم كتابها ، وكثيرا ما ثارت بينهم الخلافات إذا سمعوا من ينطق بهذه اللفظة منه أو غيرها على نحو يخالف نطقهم ، وكتب الأحاديث والتفسير والتاريخ والفرَق شاهدة على هذا . فكيف يمكن أن يُقْدِم أى منهم ، بالغا ما بلغ تهوره أو علمه أو جاهه (سمّه ما شئت) ، على إدخال الإعراب فى القرآن بعد أن لم يكن فيه؟ إن هذا لهو التغشمر بعينه من د. أنيس ، وإن لم يقل ذلك صراحة ، إلا أنه المؤدّى المنطقى لنظريته العجيبة . ثم ما الدافع الذى حدا بمخترعى الإعراب هؤلاء إلى الإقدام على ما أقدموا عليه ؟ وهل يمكن أن تتطور اللغات هذا التطور الحاسم الذى لم يكن هناك (حسبما ورد فى كتاب الأستاذ الدكتور) مثال سابق ينسج على منواله بتلك البساطة التى يريد ليقنعنا بها ؟ وفوق ذلك فإن نظريته ليست أكثر من ضرب على غير هدًى فى صحراء مضلّة ، مع الاستناد إلى افتراضات أكثر إضلالاً والإصرار العنيد على تحميل أمشاج النصوص القليلة التى يعثر عليها هنا وههنا ما لا تحتمل ليخرج علينا فى النهاية بنظرية ما أنزل =

الذى لم يشكك فى أن الإعراب كان موجوداً ، لكنه يؤكد فى ذات الوقت أنه اختفى بعد ذلك من لغتنا ، مع استمرائه هذا الوضع (الموهوم بطبيعة الحال كما لا نحتاج أن نقول) ودعوته إلى الثبات عليه بل إلى استبدال العامية بالفصحى . والعجيب أنه ، فى سبيل دفاعه عن فكرته هذه ، يؤكد « أن اللهجات العامية العربية ليست وليدة اليوم بل هى موجودة منذ العصر الجاهلى . يريد أن يقول إن وجودها الآن أمر طبيعى ، ونحن معه فى هذا لا نشاحّ فيه ، إلا أنه لا يلزم عنه أن نترك الفصحى لأى من عامياتها ، فهذا شىء ، وذاك شىء آخر ، ولا ينبغى الخلط بين الأمرين . وفى كل اللغات نجد المستوى الفصيح الذى يرتفع إليه الأدباء والكتّاب حينما يؤلفون ويحاضرون ، كما نجد مستويات أدنى من ذلك خاصة بالاستعمالات والأغراض اليومية العارضة، بل ثمة مستويات أخرى أدنى وأدنى فى بعض البيئات والدوائر المغرقة فى العامية ... وهكذا . وهذه المستويات يتعايش بعضها مع بعض فى كل اللغات ، فلماذا يتخذ البعض من هذا الوضع فى لغتنا نحن بالذات ذريعةً للتفلت من الفصحى ؟ إنهم

= الله بها من سلطان ، متهما النحويين العرب القدماء أنهم لم يفهموا لغتهم التى كانوا يَسْبَحون فيها سبحا وفَهِمها هو بعد أربعة عشر قرنا وهو فى موضعه من الشاطئ بعيدا عن البحر والسبح فيه .

يقولون إن العرب عاجزون عن إتقان هذه الفصحى[1]. حسنٌ ، فالعرب فى هذه المرحلة من تاريخهم ، كما قلنا ونقول ، عاجزون فى كل المجالات من سياسة واقتصاد وحروب وإدارة وتعليم ، وعاجزون عن الوقوف فى وجه أمريكا وإسرائيل ، وعاجزون عن إنتاج ما نحتاجه من طعام ، وعاجزون عن تنظيف شوارعنا وتجميلها (اللهم إلا فى الدول البترولية القادرة بغيرها لا بأيدى أبنائها) ، وعاجزون ... وعاجزون ... وعاجزون، فهل نستسلم لهذا العجز ونترامى على أقدام إسراميكا ونطلب منها أن تأتى لتحتل بلادنا وتتصرف فيها وفينا على النحو الذى يحلو لها ؟ إذن فأبشر يا سيد أوزون ، فها هى ذى العراق قد دخلتها جيوش الاحتلال الأمريكى والبريطانى (والصهيونى أيضاً من وراء ستار على الأقل) وبمساعدة بعض العرب ومباركة البعض الآخر! يا سيد أوزون ، إن العجز يُداوَى ببذل المزيد من الجهد وشحذ الإرادة وإيقاظ روح المقاومة واستنفار مشاعر العزة والكرامة والخجل من أوضاع التخلف المزرى لا بالاستنامة إليه والاستزادة منه والتسليم له ، وإلا فعلينا العفاء ! لقد استخرجت إسرائيل اللغة العبرية من قبرها

(١) نفس الزعم الذى ردّده المستشرقون الذى جهدوا كل الجهد فى إغراء العرب برمى الفصحى وراءهم ظهريا والإقبال على العامية بدلاً منها . انظر مثلا المقدمة التى كتبها سلدن ولمور الإنجليزى لكتابه «The Spoken Arabic of Egypt».

وأحيتها بعد مواتها الطويل ، وأنت تريد أن تدفن لغة الضاد حية . عجيب هذا وغريب ! ولكن ما الغريب العجيب فيه ؟ أخشى أن يكون الأمران هما الوجهين المختلفين لذات العملة !

وثمة ملاحظة أخرى على كتاب زكريا أوزون هى كثرة أخطائه فى حديثه عن النحو العربى ، وهو برهان آخر على أنه ليس على مستوى الموضوع الذى انتدب نفسه للخوض فيه : فعلى سبيل المثال نراه يعرّف الجملة الاسمية بأنها « كلمات مؤلفة من أسماء تجتمع لتعطى معنى صحيحا مفيدا »[1]، وهذا التعريف على صغره يتضمن أكثر من خطإ شنيع : ترى هل لعبارة « كلمات مؤلفة من أسماء » من معنى محدّد وواضح ؟ إن الكلمات لا تؤلّف من أسماء أو أفعال أو حروف ، بل هى نفسها إما أسماء أو أفعال أو حروف ، وشتان هذا وذاك . وثانياً : هل الجملة الاسمية لا تؤلف إلا من أسماء فحسب ؟ أليست جملة « محمد يلعب فى البيت » جملة اسمية مع أن بين مكوناتها فعلا هو « يلعب » وحرفًا هو « فى » ؟ وثالثًا : هل يُشترَط فى الجملة الاسمية (أو الفعلية) أن تعطى معنى صحيحا كما يقول زكريا أوزون ؟ فما القول فى عبارة مثل «الشمس تشرق من الغرب» أو « مصر أقوى قوة اقتصادية على وجه الأرض » ؟ إنهما لا تعطياننا

---

(1) ص ٢٦ .

أى معنى صحيح ، ومع ذلك فكلتاهما جملة اسمية . ثم إنه قد عاد بعد ذلك فقال إن الشرط الأساسى للجملة الاسمية « أن تبدأ باسم ، ويمكن أن يلحقها فعل »[1] . فما رأيه فى هذه الجمل مثلا : «سعيداً ضَرَبَ عليٌّ» أو « غضبانَ دخل مصطفى الغرفة » أو «الليلةَ سيقابل الأهلى والزمالك» ؟ إنها جميعا تبدأ بأسماء ، ورغم هذا ليست جملاً اسمية بل فعلية . واضح أن الرجل يتخبط ! والسبب هو أنه قد أقحم نفسه فيما يخرج عن طوقه واستطاعته !

ومن تلك الأخطاء المضحكة أيضًا اعتراضه على استعمال الجملة الاسمية فى غير الحقائق العلمية كـ « الأرض كروية » مثلاً ، إذ لا يصح أبداً فى رأيه أن نقول : « الطفل سعيد » ، لأن الجملة الاسمية عنده لا زمن لها ، ومن ثم فهى تدل على الديمومة فتغطى الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو ما لا يصدق إلا على حقائق العلم ، بخلاف عبارة « الطفل السعيد » ، التى إن صدقت الآن فإنها لم تكن صادقة فيما مضى حينما لم يكن سعيداً ، ولن تكون صادقة فى المقبل من الأيام حينما تفارقه السعادة[2] . ولنا على ذلك بعض التعقيب : فأولاً حتى لو كان أصل كلامه صحيحاً لما كان هذا سبباً

(١) ص ٥٤ / هـ ٣ .
(٢) ص ٢٦ .

فى تجنب الجمل الاسمية فى غير الحقائق العلمية ، إذ يمكن أن نقول مثلا : « الطفل الآن سعيد » مع أن هذا ليس بلازم ، لأننا نفهم معنى الآنية من التركيب نفسه دون الحاجة إلى النص عليها . وثانيا فليخبرنا سيادته كيف نعبّر عن سعادة الطفل فى الزمن الحاضر بجملة فعلية ؟ وثالثا نحب أن نلفت نظره إلى أن الجملة الاسمية التى يعبّر بها عن الحقائق العلمية فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية على الأقل تتضمن ، كسائر الجمل الاسمية فى هذه اللغات ، فعلاً، وهو هنا فعل الكينونة المضارع ، أى الدال على الحاضر . فإذا أجاب سيادته، ولا أظنه يخطر له هذا الجواب ، بأن الفعل المضارع ، وإن دل على الحاضر ، فإن السياق يعرّفنا أن المقصود هو الديمومة لا الوقت الحاضر فحسب ، قلنا له : والسياق أيضًا يفهّمنا أن قولنا : «الطفل سعيد » ، رغم عدم دلالته على زمن معين ، إنما يعنى الحاضر فقط[1]. بل إنى أزيده من الشعر بيتا كما بقول إخواننا فى السعودية

(١) ومن أمثلة ذلك فى القرآن قوله سبحانه لزكريا : « آيتُك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (آل عمران / ٤١) ، وهذه الآية المذكورة كان زمانها المستقبل دون الماضى والحاضر ، وقوله عز وجل : « ذلك من أنباء الغيب » (آل عمران/ ٤٣)، وهذه الأنباء لم تكن من الغيب بالنسبة لمن شاهدوا وقائعها . فكلتاهما جملة اسمية ، ولكنها رغم اسميتها لا تدل على ديمومة تشمل الماضى والحاضر والمستقبل جميعا . ومنها أيضاً قوله عن المتقين : « أولئك لهم جنات عدن »، =

وأسأله بمناسبة ما جاء فى كلامه من أننا « عندما نقول : «الله عظيم» فإن تلك العبارة تتسم بصفة الثبات والديمومة على مرور الزمن ... ، فالله كان عظيما ، وهو عظيم ، وسيبقى عظيما إلى الأبد»[1] : ما رأيك فيما تكرر فى القرآن الكريم من استخدام الفعل «كان» (الماضى) فى الدلالة على صفات الله مثل : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » ، « وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » ، « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا» ، « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » ... إلخ ؟ ألا تدل هذه الآيات رغم استخدامها للفعل الماضى على الديمومة والاستمرار؟ ورابعاً أو خامساً (لا أدرى) : وماذا نفعل بما يسميه كاتبنا « حقائق علمية» إذا ثبت لنا مع تقدم العلم أنها لم تكن حقائق علمية؟ هل يجب علينا عند ذاك فكّ رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام لأننا دنّسنا قاعدته المقدسة فاستخدمنا جملة اسمية لما تبيّن لنا بعد ذلك أنه ليس بحقيقة علمية ؟ أم سيسارع من الآن فيقترح

= فهذا الجزاء لا علاقة له هو أيضًا بالماضى أو الحاضر بل بالعالم الآخر فى مستقبل الأيام البعيد . ومنها قوله عز شأنه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » (الأحزاب / ٦) ، والنبى عليه السلام لم يكن لنبوته وجود قبل بعثته ، وكذلك لم تكن عائشة وحفصة وزينب ... إلخ زوجات له قبل أن يتزوجهن . والأمثلة كثيرة .

(١) ص ٢٦ ـ ٢٧ .

ألا نستخدم الجمل الاسمية ولا حتى فيما يبدو لنا حاليًا حقائق علمية حذراً من أن يظهر لنا بعد ذلك أنها ليست كذلك ؟ انظر كيف يضع السيد زكريا أوزون نفسه في مآزق ما كان أغناه عنها! ألا يرى القارئ معى إذن أن المشكلة لا وجود لها إلا فى ذهن زكريا أوزون ، الذى لا يعاود النظر فيما يخطر على باله لأول وهلة بل يقذف به كما هو بعُجَره وبُجَره دون تمحيص !

وهذا يقودنا إلى تصايح مؤلفنا النحرير فى عدة أماكن من كتابه بأن قواعد اللغة العربية بل اللغة العربية نفسها لا تقيم لمفهوم الزمن حسابًا وأن هذا هو السبب فى تخلفنا[1] . إى وربِّى هكذا قال دون أى افتئاتٍ من جانبى ! وأسارع هنا فأقول ، قبل أن أبين له أن لسان العرب يعمل للزمن ألف حساب وحساب ، إن هذه هى ذات القواعد التى كانت تحكم لغة أسلافنا ، فلماذا لم تَعُقْهم عن أن يرتقوا ويفتحوا العالم ويقيموا إمبراطورية عظمى تمثل قمة الحضارة أوانذاك؟ ثم إنه يعايرنا فى شماتة بأن « أزمنة الأفعال فى بقية اللغات العالمية (ولتكن الإنجليزية مثلا) أوضح وأدق منها فى اللغة العربية »[2]، إذ «هناك اثنا عشر زمنا فى قواعد اللغة الإنجليزية ، يضاف إليها أربعة

---

(1) ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ـ ٣٦ ، ١١٣ .

(2) ص ٣٦ .

أزمنة شرطية تستخدم كلها ، ولها مدلول واضح عند كل من يتكلم الإنجليزية»[1] . وهو يقصد بذلك تصريفات الماضى الثلاثة : الماضى البسيط ، والماضى المستمر ، والماضى البعيد ، ومثيلاتها بالنسبة للمضارع: المضارع البسيط ، والمضارع المستمر ، والمضارع التام ، وكذلك نظيراتها فى زمن الاستقبال ، عدا أساليب الشرط المختلفة : الشرط ذى الجواب المحتمل الوقوع ، وذى الجواب المستبعد حدوثه ، ثم ما لم يقع جوابه لأنه هو نفسه لم يحدث . والسؤال الآن : هل حقا لا تعرف اللغة العربية هذه التصريفات الزمنية ؟ مقطع الحق أنها تعرفها بكل يقين ، وسوف أورد هنا مثالاً على كل تصريف من هذه التصاريف الزمنية على ذات الترتيب الذى ذكرتُه لتَوِّى : « لعب أحمد الكرة ، كان أحمد يلعب الكرة ، كان أحمد قد لعب الكرة ـ يلعب أحمد الكرة ، أحمد يلعب الكرة (الآن)، قد لعب أحمد الكرة ـ سيلعب/ سوف يلعب أحمد الكرة، ستجد/ سوف تجد أحمد يلعب الكرة ، سوف يكون أحمد قد لعب الكرة ـ إن تستذكر دروسك تنجح ، لو استذكرت دروسك (لـ) نجحت ، لو كنت استذكرت دروسك لـ(كنت [قد]) نجحت / لولا أنك لم تستذكر دروسك لـ(كنت [قد]) نجحت » . ومن هذه الأمثلة ، وقد اقتصرتُ منها

(١) ص ٥٥ / هـ١٢ .

على الخطوط العامة ولم أدخل فى الدقائق والتفاصيل التى تخلو منها اللغات التى نعرفها ، يتضح أن كل ما زعمه السيد أوزون هو هراء فى هراء فى هراء ! صحيح أن كتب النحو عندنا لا تخصّص للأزمنة وتصريفاتها بابًا مستقلا ، لكن هذا شيء ، والقول بأن مفهوم الزمن غائب عن اللغة العربية أو عن قواعدها شيء مختلف تمام الاختلاف.

إن هذه المسائل موزعة على عدة أبواب من أبواب النحو ، ولم يجد نحويونا القدماء ، ولا المحدثون أيضًا ، ما يدعو إلى تجميعها فى مكان واحد من كتب القواعد ، إذ المسألة أبسط من هذا . ولا أظن أحدًا يجد شيئًا من العَنَت أو الصعوبة فى التعامل مع تصريفات الفعل حسب الزمن المراد : فمثلا تراكيب الماضى البعيد والمستمر والمستقبل البعيد يمكن أن يستخلصها الإنسان من القواعد التى تنظّم خبر «كان» إذا أتى جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع . أما الماضى البسيط والمضارع البسيط فالكلام عنه موجود عند تقسيم الفعل إلى ماض ومضارع وأمر . ويبقى المستقبل البسيط : القريب منه والبعيد ، ويفهمه المطّلِع على علم النحو من الكلام عن « السين » و « سوف » ... وهلم جرا . أما المستشرقون الذين يكتبون فى النحو العربى فإنهم ، جريًا على منهجهم فى آجروميات لغاتهم ، يخصصون بابًا لهذه التصاريف كما صنع وليام رايت فى

كتابه « A Grammar of the Arabic Language »[1]، إذ كسر على هذا الموضوع فى بداية الجزء الثانى من هذا الكتاب فصلاً عن الفعل (Verbe) جعل قسمه الأول لتصريفات الأفعال (States or Tenses)، والذى يليه لأحوالها (Modes) ... وهكذا . ومثله ريچى بلاشير وجودفروا ديمومبين فى كتابهما « Crammaire de l'Arabe Classique »، حيث يجد القارئ فى الجزء الثانى منه فصلا عن الفعل (Verbe) يبدأ بالكلام عن أزمانه وأحواله (Valeurs tempo-relles et modales) ... إلخ[2].

المسألة إذن لا تخرج عن أنهم ، فى اللغات الأجنبية التى نعرفها، يضعون لحالات الفعل الزمنية عنوانًا ، أما نحن فلم نشعر بالحاجة إلى وضع مثل هذا العنوان. ولست بحاجة إلى أن أشير إلى فقر اللغة الإنجليزية (التى يُكْثِر السيد أوزون من التباهى بها بغير حقّ ولا علم) فى بعض الجوانب من ميدان تصريف الأفعال ، إذ هى مثلاً تستخدم صيغة واحدة لا غير للمصدر والفعل المضارع (لغير الغائب المفرد) والأمر جميعا، بالإضافة إلى اسم الجنس فى كثير من الأحيان. فـ «Order» معناها «الأمر / آمُر / تأمر (أنت) / يأمران / تأمران /

(1) Cambridge University Press, 1981, Vol. 2, P. 1, sqq .

(2) G. P. Maisonneuve & Larose, Paris, 1966, P. 245, sqq .

نأمر/ تأمرون / يأمرون / يأمُرْنَ / مُرْ / مُرَا / مُرُوا / مُرْنَ / طَلَبٌ » ... وهكذا. ولا أريد أن أمضى فى هذا الباب من المقارنة بين لغة القرآن ولغة چون پول ، وحَسْبنا هذه النقطة للدلالة على غيرها من النقاط .

وقد فصَّل العقاد القول فى ذلك بعض التفصيل مبينا أن «اللغة العربية تستوفى هذه الدلالة (يقصد الدلالة على الأزمان المختلفة) بأسلوبيها المعروفين فى اللغات . ونعنى بهذين الأسلوبين أسلوب الكلمات المستفادة من التصريف والاشتقاق أو من الأدوات المصطلح على تخصيصها لمعانيها ، وأسلوب التعبيرات التى تدخل فى عداد الجمل والتراكيب . ومن الأسلوب الأول الصِّيَغ التى تأتى من تصريف الفعل للدلالة على المستقبل الإنشائى كفعل الأمر ... أما الأسلوب الآخر ، وهو أسلوب الدلالة على الزمن بالتعبيرات التى تدخل فى عداد الجمل والتراكيب ، فكلٌّ ما أمكن التعبير عنه بهذا الأسلوب فى لغة من اللغات فهو ممكن فى اللغة العربية فى سهولة كسهولتها أو أسهل منها . فقد يُنْسَب القول مثلا إلى أحد من الناس كأنه عادةٌ كان يأتى بها فى غير زمن محدود فيقول المتكلم بالإنجليزية: « He used to say » أو «He was always saying» ، ويقول العربى : « إنه كان يقول » أو « إنه تعوَّد أن يقول » أو « إنه طالما قال » . ولا تختلف العبارتان فى صحة الدلالة ولا فى التحديد الزمنى ولا فى الإطلاق من هذا التحديد ولا فى الإطالة والإيجاز ...

ومن المعلوم أن الغربيين فى آجرومياتهم يُلْحقون باب الشرط والنفى بالكلام عن الزمن فى الأفعال ... وقد استُوفِىَ الشرط والنفى فى اللغة العربية أيما استيفاء : فكان من أدوات الشرط ما يفيد الاحتمال الضعيف ، ومنها ما يفيد الاحتمال القوىّ ، كما يقال : « إن حدث هذا ...» و « إذا حدث هذا ... » ، ومنها ما يفيد الاحتمال مع الفرض والتقدير ، وقد يفيد الامتناع حين تُسْتَخْدَم « لو » فى مواضعها ، ومنها ما يفيد الشرط المعلّق على توقيت منتظر أو متفق عليه كالشرط بـ « متى » ، ومنها ما يربط السببية أو النتيجة العقلية على الإطلاق الذى لا يتقيد من الأزمان كـ « مهما » و « أيان » و « أنّى » وكـ « لو » فى بعض الأحوال . أما النفى ففيه دقة وقصد يدل على جملة قواعد القصد فى اللغة العربية : فالنفى بـ « لم » مقصور على نفى الحدوث ، وهو بالبداهة لا يكون إلا لزمن ماض لأننا لا نتكلم عن شيء حدث قطعا أو لم يحدث قطعا إلا إذا كان الكلام على ما مضى ، ولهذا تقصد اللغة فلا تحول الفعل من صيغة المضارع إلى صيغة الماضى بعد «لم ». ويقول العربى : « ما حدث هذا » ولا يقول : « لَمْ حَدَث هذا » لأن « ما » تدخل على المضارع فتفيد نفى « الانبغاء » لا نفى الحدوث . ومن قال : «ما يحدث هذا» فإنه يعنى أن هذا لا ينبغى أن يحدث ولا يُعْقَل أن يحدث . وقد يلاحَظ هذا على الفعل الماضى الذى تسبقه « ما » ، فإن نفى الوقوع

لا يخلو من نفى الانبغاء. ومن قال مثلا : «ما فاه فلان بهذا الكلام» فكأنه يقول : «حاشاه أن يفوه» ... أما إذا نُفِيَ الحدوث مع انتظاره فى المستقبل فصيغة المستقبل هنا لازمة . ولهذا يقول العربى : « لـمَّا يحدثْ هذا » وهو يترقب أن يحدث بعد قليل أو كثير ... وإذا دخلت أداة نَفْى على الفعل المضارع فهى فى حقيقتها مانعة للحدوث لا نافية للحدوث ، ومن قال : « لن يؤوب القارظان » و « لن تشرق الشمس من المغرب » فهو يقرر امتناع ذلك لسبب عنده قاطع يمنعه ... على أن اللغات التى يُتَكلَّم بها فى أرقى الأمم لم تشتمل على تصريفاتٍ أو صيغٍ مصطلح عليها للدلالة على الزمن خلت منها اللغة العربية أو من نظائرها ، وإنما تَرِد الشبهة على بعض النقاد الغربيين من وجود عناوين للأزمنة المعلقة عندهم لا توجد لها نظائر فى اللغة العربية ، وهذه الأزمنة المعلقة هى التى يُفْرَض حدوثها فيما مضى أو ما يلى فى حالات مشروطة أو متخيلة ، ولكنها ليست قاطعة ولا منتهية إلى نهاية حاسمة . وهذه الأزمنة المعلقة يعبرون عنها فى بعض اللغات الأوربية بالأفعال المساعدة مع الفعل أو اسم الفاعل أو اسم المفعول ، ويحكيها فى اللغة العربية أن نقول مثلا عن أحدٍ معروف أو مفروض : « لعله يكون مصورا كبيرا لو نشأ بعد حين » أو « فى مثل هذه الساعة من الغد يكون قد حضر أو يكون حاضرا » ... إلى أشباه هذه التعبيرات التى يسهل استخدامها فى اللغة العربية كما رأيناها ،

وليست هي في اللغات الأخرى مخصصة بوضع أصيل من أوضاع التصريف والاشتقاق »[1]. ترى هل بقيت بعد هذا الإيضاح أية قيمة لما هرف به السيد أوزون عن الزمن فى لغتنا واللغة الإنجليزية أو لما قذف به صدره من الكراهية للغة القرآن الكريم والشماتة الرخيصة بها وبقواعدها ؟

ومن أخطائه أيضًا في حديثه عن النحو العربى استنتاجه ، من إعراب النحاة لـ « كان » فى عبارة « ما كان أجمل الربيع ! » وأشباهها على أنها « زائدة »، أن مفهوم الزمن فى قواعد نحونا غائبة[2]. والواقع أن النحاة حين يقولون هنا إنها زائدة إنما يقصدون أن الإعراب لا يتغيّر بعد دخولها على الكلام عما كان عليه قبلا لا أنها لا تضيف إلى الجملة معنى لم يكن فيها . ومن المعروف لكل أحد أن « ما أجمل الربيع ! » إنما هى للتعبير عن جمال الربيع بشكل مطلق أو جمال الربيع الآن ، أما إذا كان المقصود هو إبداء الإعجاب بالربيع الفائت أو أى ربيع مضى وانقضى ، فالذى يقال عندئذ هو : «ما كان أجمل الربيع !» . وهناك سبب آخر لتسميتهم « كان » هنا زائدة ، وهو أنها فصلت بين لفظين متلازمين عادة

(١) عباس محمود العقاد / اللغة الشاعرة / مكتبة غريب / ٧٨ ـ ٨٦ .

(٢) ص ٣٢ .

بحيث لا يمكن دخول أية لفظة أخرى غير « كان » بينهما ، وعلى ندرة . وهناك كاتب معاصر ألفيته يُكثِر من استعمال « كان » زائدةً هو الأستاذ محمود شاكر في كتابه « أباطيل وأسمار »، وذلك حين يأتي بها معترضةً بين لفظين متلازمين لتنبيه القارئ بغتة أن الأمر الذى يتكلم عنه إنما كان موجودا أو متحققا فى الماضى ولم يعد كذلك الآن. ولاستعماله «كان» بهذه الطريقة نكهة مميزة لا يخطئها الذهن ولا يغيب عنه إيحاؤها التهكمى فى كثير من الأحيان .

إن قول الشاعر القديم :

فكيف إذا مررت بدار قوم   وجيران لنا كانوا كرامِ؟

يختلف قطعاً عما لو قال : « وجيران لنا كرام »، إذ يكون المعنى أنهم لا يزالون جيرانا له ولقومه ، كما يختلف بكل يقين عما لو قال : « وجيران لنا كانوا كراما » ، التى تعنى أنهم كانوا كرماء ولكنهم لم يعودوا كذلك ، أما تركيب العبارة كما أوردها فى بيته فمعناه أنهم جيران كرام ، لكنهم للأسف قد ارتحلوا عن المكان ولم يعودوا لهم بجيران . أيصح أن نتّهم قواعد النحو عندنا إذن بأن مفهوم الزمن غائب فيها ؟ ألا يفرق نُحَاتنا بين الماضى والحاضر والمستقبل فيقولون : فعل ماضٍ ، وفعل مضارع (للحاضر ، وكذلك للمستقبل: بنفسه أو بدخول « السين » أو « سوف » عليه ، مع دلالة « السين » عادة على المستقبل القريب ، و « سوف » على البعيد) ؟ ألا يفرقون،

فى نفى الماضى ، بين قولنا : « لم يلعب » و « لـمّا يلعب » بحيث تدل الأولى على عدم اللعب مطلقا ، والثانية على أنه ، وإن لم يقع اللعب فى الماضى ، يُتَوَقَّع أن يحدث فى المستقبل ؟ ألم ينصّوا على أن لكل من « كان » وأخواتها دلالة زمنية خاصة بها ؟ ألم يجعلوا من « شرع » وأمثالها من أخوات « كاد » قسمًا مستقلاً لدلالتها على الشروع فى الفعل ؟ ... إلخ ... إلخ .

كذلك يعيب زكريا أوزون الأساس الذى قُسّمت بناءً عليه الأفعال إلى متعدية ولازمة ، قائلاً إن جملةً مثل « جلس أحمد على السرير » ، تحتوى على مفعول به رغم أنه ليس منصوبًا ، ألا وهو «السرير» ، قائلاً إن « فعل الجلوس قد ... وقع على السرير ، وعليه فالسرير هو ما تم وقوع الفعل عليه ، فهو مفعول به ، وإن كان مجرورًا »[1] . وواضح أن السيد أوزون لا يحسن التفكير والتصوُّر ، وليس بمكنته التفطن إلى النكات الدقيقة ، ومن ثم فقد خلط بين وقوع الفعل على الشىء (أىْ فَوْقَه) وبين إيقاعه به . صحيح أن «الجلوس» فى هذا المثال قد وقع على السرير (أىْ فوقه) ، لكن لا يمكن أن يُوقَع به الجلوس ، أى لا يمكن أن يصيبه الجلوس ، إذ الجلوس لا يحتاج إلا إلى طرف واحد هو الذى يحدث من خلاله

(1) ص ٣٦ ـ ٣٧ .

الجلوس ، أو كما يقول النحويون القدماء : يقوم به الجلوس ، بخلاف ما لو قلنا: «أجلس محمدٌ سعيداً على السرير» ، فهاهنا طرفان: الأول الذى أحدث الإجلاس ، وهو محمد ، والثانى الذى أصابه الإجلاس ، وهو سعيد ، أما السرير فهو الذى وقع عليه (أىْ فوقه) الإجلاس ، بمعنى «حدث فوقه الإجلاس» ، أى أنه ظرف . ويسميه بعض النحاة : «مفعولا فيه» . فهو مفعول ، لكنه ليس مفعولا به بل مفعولا فيه . وهذا مصطلح يطلق على كل مكان وقع عنده الحدث سواء وقع «فيه» فعلا ، أو وقع «عليه» أو «إليه» . فحرف الجر «فى» هنا لا يدل على أن الحدث قد وقع داخل السرير ، إنما يقصد النحاة من السرير والبيت والقبلة وغيرها من الظروف فكرة المكان المجرَّد. ونحن نعرف أن المكان ، مَثَلُه مَثَلُ الزمان ، يحتوى الحدث داخله ، ومن هنا قالوا : « المفعول فيه » ، وإن لم يحتو بالضرورة كلُّ ظرفٍ فَرْدٍ «على» الحدث . أما إذا أردنا تبسيط الأمر وتخفيفه فإننا نقول إن «المفعول فيه» هو مجرد اصطلاح ، وفى الاصطلاحات يراعَى دائما الإيجاز لا الدقة المحكمة ، وعلى هذا لا يمكن أن نقول : « المفعول فيه أو منه أو عليه أو إليه ... » ، بل يقال على سبيل الاختصار «المفعول فيه». وهذه التسمية تغطّى سائر هذه المعانى ، كما نقول : « الألفباء » ، ونقصد الحروف التسعة والعشرين لا « الألف » و «الباء» وحدهما ، وكما نقول : « أراق فلان حبرا كثيرا » ، أى كتب كلاما كثيرا ،

وهو لم يُرِقْ حبرا فقط ، بل أنفق وقتا ، واستهلك ورقًا ، وأعمل عقلا ، وأحرق أعصابا ، وأشبع رغبة ، وأذاع علما ، وأدى رسالة ... إلخ .

ومن أعجب العجب أن المؤلف ، فى الوقت الذى يصرّ على تسمية « الظرف » : « مفعولا به » مُدْخِلاً بهذه الطريقة فى «المفعول به» ما ليس منه ، هو نفسه الذى يريد أن يُخْرِجَ من فئة «المفعول به» المفاعيل الثانية فى نحو «أعطى أحمدُ الفقيرَ رغيف خبز» ، مدعيا أن « رغيف الخبز » ليس مفعولاً ثانيا بل مجرد مبيِّن لنوع العطاء ، ولا علاقة له بوقوعه ، إذ العطاء لم يقع إلا على «الفقير»[1] . وإنى لأسأل : أليس « الرغيف » فى قولنا : « قدم أحمد للفقير رغيفًا » مفعولاً به ؟ بلى هو كذلك بكل تأكيد ، ولا يمكن لأوزون ولا لألف واحد مثل أوزون أن يزعم غير ذلك . فما الفرق إذن بين «الرغيف» فى هذا المثال ، و « الرغيف » فى المثال السابق ، والمعنيان إجمالاً واحد ؟ أم هو العناد لمجرد العناد والسلام ؟ إن الأمر بحاجة إلى دراسة نفسية ، ما فى ذلك من ريب !

أمر آخر أحاجّه به ، وهو المغرم بالإنجليزية ، وإن كان واضحا أن معرفته بها لا تتعدى الفتات ، ألا وهو أن الإنجليز يعبرون عن قولنا : « أعطى أحمد الفقير رغيفًا » ، بطريقتين : الأولى :

---

(١) ص ٣٨ .

«Ahmad has given the poor man a loaf of bread»، وهى تشبه فى تركيبها الجملة العربية التى نحن بإزائها، ولا تعليق لى عليها، وإنما كلامى على الطريقة الثانية : « Ahmad has given a loaf of bread to the poor man »، وفيها يظهر بكل وضوح أن « الرغيف » هو المفعول به المباشر الذى لا يمكن المماحكة فيه من جانب مؤلفنا ، أما « الفقير » فسبقه حرف جرّ ، وهو ما يمكن أن يكون محلا لعناده وسفسطته . ويبدو أن الأسلوب العربى قد تأثر ، فيما يبدو ، بهذا التركيب ، إذ نسمع كثيرا من يقول : « أعطى أحمد للفقير رغيفا » (على غرار قولنا: «قدم أحمد للفقير رغيفا»)، مما يؤكد أن « الرغيف » هو مفعول به بلا جدال . أما التعبير عن نوع العطاء فهو من عمل المفعول المطلق ، كما فى قولنا مثلا : «أعطى أحمد الفقير رغيفًا عطاء الشفقة أو عطاء المراءاة أو عطاء الكرم أو عطاء الشماتة ... إلخ ». ثم سؤال أخير : ما الفائدة من اعتراضه على استعمال مصطلح « المفعول الثانى » بالنسبة لـ«الرغيف» ما دام يدعو إلى إلغاء الإعراب من أساسه ؟ ألم أقل إن الأمر يحتاج إلى دراسة نفسية ، وبخاصة إذا رأيناه ، بعد كل هذا الصخب والضجيج الذى أزعج به آذاننا وأرهق أعصابنا ، يعود فيقول عن كلمة « شواء » فى قولنا : « أعطيت أوقيةً شواءً » : « لماذا لا تكون « شواء » بدلا من أوقية ، أو صفة ، أو مفعولا به ثانيا حيث

وقع عليها فعل العطاء ؟»[1]. الله أكبر ! أبعد رفضك الحرون أن يكون «الرغيف» مفعولاً ثانياً لـ« أعطى » فى المثال الآنف الذكر لأنه حسب وهمك لم يقع عليه العطاء، ترجع فتقول إن « العطاء » قد وقع على الشواء، ويصحّ من ثم إعرابه مفعولا ثانياً ؟ أما قوله بعد هذا إن تلك «الافتراضات من مدرسة أهل اللغة ولا تمثل رأينا» فلا معنى له لأن النحاة أعقل وأحجى من أن يقولوا إن « الشواء » فى الجملة التى معنا الآن يمكن أن تُعْرَب صفةً أو مفعولا ثانياً ، بل هو كلامه ، ودافعه إليه هو أيضًا العناد الحرون والرغبة الطفولية فى المخالفة لمجرد المخالفة ، إذ من الجلىّ أنه قد أقبل على الموضوع وفى نيته (أو نية من شجعوه على هذا السخف) هدْم النحو وإحلال عامية « يالطيف ! شو حلُو ها البيت ! » محل لغة « أهل قريش ومضر » كما يقول[2] ، يقصد الفصحى . وهى، كما لا أظننى بحاجة إلى أن أؤكد ، نية فاسدة وطائشة ولن تصل إلى شىء ، والطريق إليها « مسدود مسدود مسدود يا ولدى ! » كما يقول نزار قبانى ، الذى أراد أن يتخذ من قوله : «سأهرب من لعنة المبتدا والخبر» معولا لهدم المبتدإ والخبر والنحو والصرف ولغة القرآن الكريم جملة وتفصيلا[3] !

---

(١) ص ٨٢ .

(٢) انظر ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) انظر ص ٢٧ وما بعدها .

أما حكاية « يا لطيف ! شو حلو ها البيت ! » (وهى دليل آخر على أنه يتصدى لما يجهل ، وكل عُدّته هى العناد الحَرُون) فتتلخص فى أنه كالعادة يهاجم النحويين متهما إياهم بممارسة « الدكتاتورية اللغوية » ، إذ يدعى أنهم يفرضون علينا ، متى أردنا التعجب من شىء ، أن نقول : « ما أجمله ! وأَجْمِلْ به ! » ، ثم يتساءل فى سذاجة (ولكن غير محببة) : « ألا يحق لى أن أقول : « يا لجمال البيت ! » مثلا ، أو « يا لطيف ! شو حُلُو ها البيت ! » أم أنه يتوجب علىَّ أن أتعجب كما يتعجب أهل قريش ومضر ؟ ألا يحق لى أن أعبّر عن مشاعرى بالأسلوب الذى يعجبنى ويعجب أفراد أمتى المعاصرين ، وهو ما يحدث وما سيحدث ، لأن نُحَاتنا ، والنحو معهم، يسيرون فى طريق مسدود ؟ »(1) . وجوابنا هو أن السيد أوزون يستطيع أن يقول : « ما أجمل البيت ! » و « أَجْمِلْ بالبيت ! » على طريقة أهل قريش ومضر ، ويستطيع كذلك أن يقول : «يا لجمال البيت !» ، أو يا عجبا لهذا البيت ! » أو « وا عجبا له! »(2) ، وهى طريقة أهل قريش ومضر أيضًا والله العظيم . كما يستطيع أن يقول : « كم يعجبنى هذا البيت ! » على طريقتهم للمرة الثالثة(3) . وبالمثل يستطيع

(1) ص ٤١ ـ ٤٢ .

(2) وهذا التركيب موجود فى باب « الاستغاثة » .

(3) و « كم » هنا هى « كم » الخبرية ، التى يضعها النحاة فى باب « كنايات العدد » .

أن يقول : « إننى معجب بهذا البيت ! » أو « إننى معجب به أشد الإعجاب !»[1] أو « أكاد أُجَنّ من فرط الإعجاب به ! » أو « سأموت من شدة الإعجاب به ! » أو « لقد رُدَّتْ لى الروح من فرط جماله العجيب ! » أو « إنه لشيء عجيب (أو عُجَاب)! » أو « إن إعجابى بهذا البيت لا حدّ له ! » أو « إن جماله لا ينقضى منه العجب ! » أو «إنه لبيت عجيب !» أو « سأظل معجبا به ما بقى الليل والنهار أو حتى يؤوب القارظان أو ما قام رَضْوَى فى مكانه ! » أو « بارك الله فيمن بنى هذا البيت العجيب ! » ، وكل هذا وغيره هو على طريقة أهل قريش ومضر . ذلك أنهم قد أعطَوْه ألفاظ اللغة وقوالبها التركيبية، ويستطيع أن يولّد من هذه وتلك ما يشاء ، وهو فى كل ذلك يجرى على سنتهم ، ولو كره الأوزونون !

وما دام زكريا أوزون يموت غرامًا وولَهًا بالإنجليزية ، التى من الجلىّ أنه لا يفقه منها شيئًا ذا بال، فإنى أعلّمه (ولكن ياليته يتعلم !) أن فى الإنجليزية أيضاً صيغتَىْ تعجبٍ قياسيتين ، بالضبط مثلما عندنا « ما أفعله ، وأَفْعِلْ به »، إذ عندما يريد الإنجليزى التعجب من شجاعة إنسان مثلاً فإنه يقول : « How brave this man is ! » أو

(١) وهذا التركيب يقوم على استخدام المفعول المطلق ، أو بالأحرى « نائب المفعول المطلق »، وإن اغتاظ السيد أوزون من هذه النيابة (انظر ص ٧٦) .

« What a brave man he is ! » ، وفـــى الفرنسيـــة يقولـــون : «Comme cet homme est brave !» أو « Que cet homme ça est brave! » . وكـمـا أننا نستطيع أن نترك صيغتى التعجب الجاهزتين فى لغتنا إلى صيغ أخرى فإن بمكنة الإنجليزى والفرنسى أن يعبر عن عجبه من شجاعة شخصٍ ما بأساليب أخرى إذا أراد .

ومن عناده وخَطَله كذلك اعتراضه على القول بوجود فاعل لأى فعل أمر مثل « ارْجِعْ » و « اسكُنْ » ، وحجته (أو بالأحرى : شُبْهته) أن هناك احتمالا كبيرا بعدم تحقق الفعل أصلاً ومن ثم بعدم وجود فاعل له[1] . وهذه طريقة فى التفكير عجيبة لا أظنها خطرت لأحد من قبل . والحلّ سهل جدا ، إذ ما المانع أن نقول إن الفاعل فى «قُلْ» هو « أنت إن شاء الله » بإضافة عبارة « إن شاء الله » احترازاً ، وكذلك طمأنةً لضمير السيد أوزون الحسّاس كى يهدأ ويغفو قليلا بدلاً من هذه الوسوسة المؤلمة ! ما رأيك أيها القارئ العزيز فى هذا الحلّ ؟ ولكننى مع هذا لا أدرى لماذا تحرّج ضمير السيد أوزون أمام الفاعل فقط ، ولم يتحرج هذا التحرج مع المفعول به فى حالة مجىء فعل الأمر متعديا . بل لا أدرى لماذا لم يُجْرِ هذه القاعدة العجيبة على الفعل أيضاً ، إذ إننى عندما آمر إنسانا بقولى : « ادخل البيت بقدمك

---

(١) ص ٥٢ .

اليمنى » لا يكون الدخول قد حدث بعد ، بل يمكن ألا يحدث فلا يدخل الرجل بقدمه اليمنى ولكن باليسرى ، أو ربما لا يدخل أصلا لا بيمناه ولا بيسراه . ليس هذا فقط ، إذ لن ينتهى الأمر عند ذلك الحدّ ، فنفس الكلام يصدق على قولنا : « سنسافر (أو سوف نسافر) بعد شهرين » أو «إن سافرنا بعد شهرين فسوف نصل فى الميعاد» ، إذ من المحتمل ألا نسافر فى هذا الميعاد أو ألا نسافر أبدا .

وغنى عن البيان أن قولنا : « لن نشترى هذا البيت » لا يمكن أن يكون له فاعل ولا مفعول ولا فيه فِعْلٌ قولاً واحداً لأنه نفى ، والنفى معناه عدم حدوث الفعل من أساسه . ما رأى القارئ فى هذا اللون العبقرى من التفكير ؟ بل علينا فى حالة الإخبار عن الماضى أو الحاضر ألا نتعجل فنقول بالفعل والفاعل والمفعول قبل أن نتأكد أولا أن الخبر صحيح ، وإلا فلا فعل ولا فاعل ولا مفعول . وعلى هذا فإذا طلب أستاذ إلى تلميذ أن يعرب جملة « باع زيد بيته أمس » مثلا كانت الإجابة الصحيحة : « أمهلنى يا أستاذ إلى أن أتحقق من أن البيع قد وقع فعلاً ، ثم أمهلنى ثانية حتى يتم توثيق البيع فى المحكمة ويصدر الحكم ويتسلم المشترى العقد القضائى » . ومُتْ يا حمار حتى يأتيك العَلِيق ! وأَسْلَمُ من هذا كله أن نلغى أبواب الفعل والفاعل والمفعول به وما يتعلق بذلك من أشباه الجمل والظروف والأحوال والتمييزات والاستثناءات ... إلى آخر أبواب النحو ، بل أن نلغى اللغة

كلها ، بل أن نقطع ألسنتنا ونغلق أفواهنا ونوقف عن التفكير عقولنا ... ثم ننتحر حتى يرضى عنا السيد أوزون ، وله العُتْبَى حتى يرضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وعلى هذا النحو أيضاً نراه يتخبط عند حديثه عن الضمائر ، فهو يقول مثلا إن ما يسميه النحاة بـ « الضمائر المتصلة » (وهى «النون» و « التاء » و « الواو » و « الألف » و « الياء » فى الجمل التالية على الترتيب : « النسوة قُمْن . أكلتُ كثيرا . أرسلوا إلىَّ خطابا طويلا ، الطالبان نجحا بامتياز . دائما ما تأتين متأخرة عن الميعاد ») لا يمكن أن تكون معارف لأنها أحرف ، أى أنها ليست أسماءً أصلا . لكننا ننظر فنجده عُقَيْبَ هذا يأخذ فى إعراب جملة « سأعطيك أنت ومن معك » قائلاً إن « أنت » فى محل نصب مفعول به أو بدلٌ من الكاف أو توكيد له ... إلى آخر ما قال[1] . والذى يهمنا هو قوله إن «أنت» بدل من « الكاف » أو توكيد لها . والحروف لا تكون مبدلاً منها ، كما لا يمكن توكيدها ما عدا « نَعَمْ » و « لا » . وبداية كلامه تدل بكل جلاء على أن الكلام هنا عن المفعول به ، أى أن عندنا مفعولاً به ، و « أنت » بدلٌ من هذا المفعول أو توكيد له كما يقول السيد أوزون . وكل ذلك يدل على أنه قد لحس اعتراضه الذى مرّ قبل أقل من ثلاثة أسطر ، ومعنى هذا أنه يتخبط ولا يدرى ماذا يقول .

---

(١) انظر ص ٥٨ ـ ٥٩ .

وأشنع من ذلك وأدل على الجهل ضَربه المثال التالى : « أإياى يعاقَب ؟ » ، وهو مثال لا يتمالك الإنسان نفسه إزاءه من أن يقول بملء فمه على طريقة أهل قريش ومضر رغم أنف المؤلف اللَّوْذَعِىّ : ما أجهله ! وأجْهِلْ به ! ويا عجبا (أو واعجبا) من جهله ! ويا لجهله ! أو واجهل أورزوناه ! ... إلى آخر الصور التعجبية التى تركها لنا أهل قريش ومضر أو يمكن توليدها مما تركه أهل قريش ومضر . ثم إن السيد أوزون لا يكتفى بهذا بل يزيد الطين بِلّةً ، إذ يأخذ فى إعراب الجملة قائلا إن « ... « الألف » (الهمزة) هى للاستفهام ، و«إياى» ضمير منفصل فى محل رفع مبتدأ (نائب مبتدإ)[1] لأن الفعل المضارع بعده مبنى للمجهول . أم للنحاة تخريجة أخرى؟»[2] . حاشا لله يا أستاذ ! وهل يجرؤ النحاة على أن يكون لهم قول بعد هذا القول الفصل ؟ لقد عشنا حتى شفنا فى آخر الزمان من يظن أن من الممكن تركيب جملة مثل « أإياى يعاقَب ؟ » ! من أين أتيت بهذا الكلام يا أستاذ ؟ يقينا أنك أتيت به من وراء أسوار العقل والتفكير السليم ! إن من الممكن أن نقول مثلا : « أمِثْلى يعاقَب ؟ » أو « آأنا أُعاقَب ؟» ، أما « أإياى يعاقب ؟ » فهذا ما لم نسمع به لا فى الزمان الأول ولا الزمان الأخير ، لا فى لغتنا ولا فى أية لغة نعرفها إلا

(١) ص ٥٩ .

(٢) هذه أول مرة فى عمرى أسمع فيها بـ « نائب المبتدإ » .

منك ، وبلا فخر . وفى الإنجليزية والفرنسية والألمانية لا بد أن نستعمل فى مثل هذا التركيب ضمير الفاعل « I , Je, Ich » (الذى يقابل عندنا « أنا ») لا ضمير المفعول « me, me, mich » (الذى يقابل فى لغتنا « إياى »)، وهم يعربونه فى هذه الحالة « فاعلاً »(١) لا « مفعولا به » كما تقول ثم تذهب فتقدر ضميرا مستترا جوازا تقديره «هو » لتجعله نائب فاعل ، وهو ما لا وجود له فى أى نحوٍ فوق وجه الأرض وتحت أديم السماء !

ومن الضمائر ننتقل إلى أسماء الإشارة ، ومعنا دائمًا نفس الخلْط العجيب . إن سيادته يرفض أن توضع « أسماء الإشارة » بين المعارف قائلا : « هل قولنا للشيء : « هذا » يعنى معرفته ؟ ». ترى بم يمكن أن يجيب الإنسان مثل هذا التفكير ؟ أوَعندما تقف أمام الشيء وتشير إليه بإصبعك أو برأسك أو بأية وسيلة أخرى تنوب عن الإصبع والرأس يظل ذلك الشيء مجهولاً أو غير محدّد ؟ بسيطة ! فلنطلب من المتحدث ألا يكتفى بهذا بل يذهب إلى الشيء المشار إليه ويضع يده عليه قائلاً : « هذا هو الشيء الذى أشير إليه » كيلا يترك فى نفس المستمع أية شبهة حول ما يريد ، وذلك على طريقة الشيخ الذى كان يعلمنا فى صبانا كيف ننوى الدخول فى الصلاة ،

---

(١) لأنهم لا يعرفون مصطلح « نائب الفاعل » .

إذ كان يطلب منا أن نقول حينئذ : « نويت أن أصلى الظهر حاضرا أربع ركعات مستقبلا القبلة مقتديا بهذا الإمام (ثم نشير بإصبعنا نحو الإمام) الله أكبر ». ما شاء الله ! لكننا عندما كبرنا تنبهنا أن هذا كله سخف من السخف ، لأن كلمة « نية » تعنى مقصدك الذى تطويه فى نفسك لا الذى تتلفظ به وتتخذ للفظه مثل هذه الاحتياطات والإجراءات نزولاً على حكم الوساوس القهرية التى تصيب بعض المرضى والعياذ بالله ، فأصبحنا نكتفى بقولنا : « الله أكبر »، لا نزيد عليها حرفا . وهل الله سبحانه بحاجة إلى هذه التحديدات المضحكة لاسم الصلاة ووقتها وعدد ركعاتها وجهة القبلة وشخص الإمام ؟ والحمد لله أن الشيخ لم يطلب منا أيضًا تحديد اسم المسجد وموقعه ومساحته وارتفاعه وعدد نوافذه ونوع سجاجيده أو حُصُره والصف الذى نقف فيه وموقفنا منه وعدد المصلين معنا وراء الإمام وأسماءهم وتراجمهم ... إلخ ، إن كان لذلك من آخر على رأى المازنى رحمه الله! صدق من قال : « شر البلية ما يُضْحِك ! » .

وعجيب من مؤلفنا أن يأنس فى نفسه القدرة على التهكم فيقول عن أسماء الإشارة « تى وذان وتان » إنها تذكرة بشخصية فرنسية فكاهية لشاب اسمه « تان تان » ربما أخذ اسمه من تلك الأسماء . ثم يمضى فيقول إنه « لا عجب فى ذلك ، فلا يوجد أحد من ناطقى لغة الضاد المحكية (العامية) يقول : « ذان » أو « تان » أو

«تى» ...»[1]. ترى ما الذى يُضْحِك فى أسماء الإشارة هذه إلا جهلُه الذى يسوّل له الجرأة على محاكمة المستوى الأدبى الفصيح فى اللغة إلى مستوى الدهماء ، وما دام الدهماء لا يقولون : « ذان » و «تان» و«تى» فلا داعى لها؟ وقياساً على هذا ينبغى أن نحذف روائع الآداب والفنون وفروع العلوم المختلفة وغير ذلك مما لا يهتم به العوام ! أرأيتم مثل هذا المنطق ؟ إن علينا ، بناءً على الرغبة السامية لزكريا أوزون ، أن نترك أسماء الإشارة فى الفصحى ونستعمل عوضًا عنها : « دَهْ » و « دَهُـه » و « دُكْهَـه » و« دُول » و« دَلَهُـمَّه » و « دُكْهَـمَّه » ... إلخ! وهذا فى مصر فقط ! إن من عرف حجة على من لم يعرف يا أستاذ ، لكنك تقلب الآية فتجعل للجهل اليد العليا وللعلم اليد السفلى ، وتطالب بحذف « ذان » و « تان » (اسمى الإشارة للمثنى) مع أنك فى موضع آخر من كتابك تشيد (فى غفلة من غفلات وعيك) باللغة العربية لاحتوائها على المثنى وتدعو إلى إحياء صِيَغه بعد أن أخذتْ فى الانحسار من اللغة العادية المحكية كما تقول، وإن كان قد غلبك طبعك فأضفت إلى هذا الثناء الحقّ كلامًا يكشف عن جهلك بالموضوع[2] كما سنبين لاحقا . ترى كيف نشير إلى المثنى إذا حذفنا « ذان » و « تان » ؟ إننا بالنسبة للقريب

---

(١) ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) انظر ص ٦٦ .

نقـول : « هذان » و «هاتان» (ويمكن أن نحـذف الهـاء من أول الكلمتين) ، ونقـول للبعيـد : «ذانك» و « تانك ». وإذا وجدنا من يخطئ فى شىء من هذا صححناه له كما هو الحال عند كثير من الكتاب المعاصرين ، إذ يقول الواحد منهم : « ذلكما » و « تلكما » مثنيًا المخاطب بدلاً من تثنية المشار إليه[١] .

أما الكلام المنبئ عن الجهل والذى أسرع المؤلف فأضافه إلى إشادته بلغة يعرب فهو قوله : « فى الإنجليزية تنوب الكلمة « both » (كلاهما) عن الألف أو الياء والنون فى المثنى فى العربية »[٢]. وهذا غير صحيح بالمرة ، فـ « both » تقابل « كلاهما ـ كليهما / كلتاهما ـ كلتيهما » لا علامة التثنية « ـانِ / ـينِ »، التى يقابلها عند الإنجليز كلمة « the two » قبل الاسم المجموع ، إذ يقولون

---

(١) تصادف ، أثناء إعدادى لهذه الصفحات ، أن كنت أقرأ فى كتاب د. ثروت عكاشة « مذكراتى فى السياسة والثقافة » وكتاب عبد الرشيد الصادق محمودى « من الشاطئ الآخر » فوجدت الأول يقول : « لا سيما أن تلكما الدولتين ...» (مكتبة مدبولى / ١ / ٣٨٦)، والثانى يجرى على طريقته حذوك القُذة بالقذة قائلا : « ... عند تلكما الصفحتين » (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر / بيروت / ١٩٩٠م / ١١) . والصواب هو : « ... تَيْنِكَ الدولتين » و « ... تينك الصفحتين »، وهما صيغتا النصب والجرّ من « تان » ، التى أضحكت زكريا أوزون وسوّلت له أن يسخر من النحاة واللغة !

(٢) ص ٨٨ / هـ ٨ .

مثلا : « The two boys » و « The two windows » ، أى «الولدان» و « النافذتان » . فالرجل ، كما هو واضح ، يُسْلِم نفسه لقدميه الضخمتين المفلطحتين تأخذانه هنا وههنا دائستين على كل ثمين من التحف اللغوية الرقيقة ومحطمتين إياه تحطيما دون أدنى إحساس بنفاسته . لطفك اللهم ! والله إنها لمهزلة أن يُقْدِم مثله على الخوض فى هذا الموضوع وأن تجرؤ إحدى دور النشر على أن تذيع له ذلك الكلام الذى ليس له من مكان يليق به إلا البالوعات ! أمثل زكريا أوزون يناطح سيبويه ؟ لا أقول هذا لأن سيبويه فوق النقد ، ولكن لأن نقد سيبويه يستلزم أن يقوم به من هو على مستوى سيبويه أو يقاربه فى العقل والعلم ، أما أن يهبّ قزم فيتطاول على سيبويه ، وهو لا يصلح أن يجلس عند قدمى تلامذة تلامذة تلامذة تلاميذه ، فتلك سُبّة الدهر وسوأة الأبد !

على أن القدمتين الضخمتين المفلطحتين اللتين ابتُلِيتا بالعمى والبلادة لا تقفان عند هذا بل تمضيان فتأخذان فى طريقهما صِيَغ الجموع فى اللغة العربية مبتغيتين تحطيمها هى أيضًا ، إذ ينادى الأستاذ المؤلف (مؤلف آخر زمن!) بأنه « يجب إعادة النظر ببعض التسميات فيه كجمع الجمع واسم الجمع وجمع التكسير (تكسير ! ما هذا التعبير ؟) ، وعلينا إيجاد صيغ جديدة للجمع تنسجم مع المعطيات والتسميات المعاصرة لا أن نعود للقياس على ما قال غيرنا

فيما نعلمه ويجهلونه »[1]. وتتساءل القدمان العمياوان الغبيتان أثناء الحديث عن الأسماء المذكَّرة والمؤنثة فى لغتنا فى سخرية مقيتة : «من منا يعتبر اسم « زينب » أو « مريم » اسما مذكَّرا ، واسم «معاوية» مؤنثا ؟ إن ذلك يذكرنى ببعض الأصدقاء الإيرلنديين الذين يسمعون اسمًا يكاد يدوى فى السماء العربية بذكورته كاسم «صخر» أو «غَضَنْفَر» فيسألون : هل هذا الاسم لذكر أم لأنثى ؟»[2].

وسوف نعدِّى عن حكايته مع صديقه الإيرلندى لأننى لا أفهم ماذا تريد القدمان الضخمتان من ورائها[3]، ونجيب عليه قائلين : فأما بالنسبة لـ « زينب » و « مريم » فلا أحد يقول إنهما اسمان مذكَّران، ومن ثم فلا داعى للسؤال ، ولا محل للتهكم الذى يبطّنه. وأما بالنسبة لـ « معاوية » فهو فى الأصل صفةٌ مؤنثة ، ثم لما استُعْمِل عَلَمًا أُطْلِق على الذكور ، فهو رغم صيغته المؤنثة اسمُ علمٍ للمذكر ، ولذلك يقول النحاة عنه إنه مؤنث لفظى ، أى ذو صيغة مؤنثة لكنه يشير إلى صبىّ أو رجل لا إلى بنت أو امرأة . ومع ذلك فلو سُمِّيَتْ به بنت لكان فى هذه الحالة مؤنثًا لفظا ومعنًى كما هو

---

(١) ص ٦٦ .

(٢) ص ٦٨ .

(٣) علاوة على أننا لا يصح أن نأخذ نحونا عن الإيرلنديين ، ويكفينا أننا ابتُلينا بزكريا أوزون ، فالمسألة لا تحتمل بلوى أخرى !

الأمر مثلا فى أسماء « عصْمت (عصمة) وحكْمَت (حكمة) وعفّت (عفّة) »، التى تُطْلَق على الرجال والنساء معًا . أفهمت القدمان المفلطحتان أم لا تريدان أن تفهما ؟

ومع العلم اللدُنّىّ الذى اختُصّ به زكريا أوزون نمضى لنسمعه يقول فى تعريف « المنصوبات » إنها « الأسماء التى حركة أواخرها فتحة ، فهى منصوبة »[1]، مع أن من الأسماء المنصوبة ما ليس فى آخره فتحة ، وهذا من شيوع المعرفة بمكان مكين ركين : فالأسماء الستة تُنْصَب بالألف ، والمثنى بالياء الساكنة المفتوح ما قبلها ، وجمع الألف والتاء بالكسرة ، كما أن من الأسماء ما حركة آخره بالفتح ، ومع ذلك فليس بمنصوب بل هو مبنى ، مثل « لا رجلَ فى الدار » و « أيْنَ » و « عنْدَ ». ثم نتابع مسيرتنا مع ذلك العلم اللدنى الذى يجود علينا بالدرر واللآلئ العبقرية المنقطعة النظير فنجد صاحبه يحمل على النحاة ويسخر منهم كعادته إذ ينّصبون « الشارع » فى مثل قولنا: « سرتُ والشارعَ » على أساس أنه « مفعول معه »، متسائلاً فى أستاذية : « كيف يتم إنجاز الفعل من قِبَل الإنسان والشارع معا ؟ سؤال لا أعرف كيف أطرحه ، فهل يجد لى النحاة صيغة لسؤالى ، ومن ثم يجيبون عليه أنفسهم ؟»[2]. وعجيب أن

---

(١) ص ٦٨ .

(٢) ص ٧٧ .

يجرؤ السيد أوزون على التهكم بعلماء النحو بهذه الثقة وهو من الجهل بالموضوع الذى يخوض فيه بتلك الدرجة الشنيعة ! إنها ثقة الحمقى والجهلاء ، وكم للحمقى والجهلاء من ثقة مُرْدِيَة ! أليسوا جهلاء وحمقى ليس عندهم من الحكمة ولا أَنْعَم الله من نعمة التروى ما يأخذ بحُجُزهم عن التقحم فى المهالك ؟ إن عقولهم فى خفة عقل الفَرَاش الذى يلقى بنفسه فى النار وهو لا يعرف أن فيها هلاكه المحتوم ! إن أوزون يظن ، لقصور عقله ، أن المفعول معه يشارك الفاعل فى الفعل ، ومن هنا نراه يخلط بينه وبين المعطوف . وهذا معنى سؤاله : «كيف يتم إنجاز الفعل من قِبَل الإنسان والشارع معا؟» . إنه لا يستطيع التمييز بين « واو المفعول معه » و«واو العطف» ، فأىّ بلوى هذه يا إلهى! وإذا كان هذا هو مستواه فى الفهم وفى النحو والإعراب فلماذا لم يلزم عقر داره ويغلق على نفسه بابه بالضبة والمفتاح فيغنم السلامة على الأقل ما دام لا أمل فى غُنْمه شيئا من العلم يَصلُح به عقله وتستقيم معه حياته ؟ إن هذه « الواو » تدل على الملازمة لا على الاشتراك فى الحكم ، فحين أقول : «سرتُ والشارعَ» فلا يعنى هذا أن الشارع قد سار معى ، ولكن معناه أننى طوال سيرى لم أفارقه ، فإذا استقام استقمت مثله ، وإذا انعطف يمينا انعطفت معه ، وإذا ذهب شمالا اتبعته أيضًا ناحية الشمال ...

وهكذا[1]. ولو كنتُ أريد أن الشارع قد سار معى لقلتُ : « سرتُ (أنا) والشارعُ » برفع « الشارع » لا بفتحه . وحتى لو قلتُ ذلك ما كان عليَّ من بأس ، فإن هذا من باب المجاز الذى يخلق اللغة خلقا جديداً ويفيض عليها من بهائه ما يرفعها عن الأرض إلى السماء .

وعلى نفس الشاكلة من التخبط واضطراب الفهم أمام ما هو واضح لا يحتاج إلى شرح يقف مؤلفنا العبقرى متبلدا حائراً بائرا أمام مرجع الضمير فى مصطلح « المفعول لأجله » (فى قولنا على سبيل المثال : « وقف الطلاب احتراماً للمعلم ») : ترى أيعود هذا الضمير على الفعل « وقف » أم على « المعلّم » أم على «الطلاب» ؟ هكذا يتساءل السيد أوزون ، ثم يجيب قائلا : « الواضح أن « المعلم » هو المفعول لأجله ، فمن أجله تم الوقوف من قِبَل الطلاب ، أما «احتراماً» فهى سبب وقوف الطلاب ، وهكذا يتضح لنا ثانية أن تلك

---

(١) ولذلك نترجم هذه الجملة إلى الإنجليزية والفرنسية مثلا دون حرف عطف على النحو التالى : « I went along the street » و « Je marchai avec la rue » ، ولذلك أيضًا سُمِّيَت « الواو » هنا « واو المعية» ، ولم تُسَمَّ « واو العطف » . ومثل ذلك قولنا : « وُلد نبيلٌ وأذانَ العشاء » ، والمعنى أنه وُلِد عند أذان العشاء لا أن أذان العشاء قد وُلِد أيضًا مثله ، وذلك من الجلاء بحيث لم أكن لأظن أن من البشر من يخطئ فهمه ، ولكن ها هو ذا السيد أوزون يخيِّب ظنَّنا !

التسميات بحاجة إلى إعادة نظر »[1]. ويلاحظ القارئ أن السيد أوزون قد ذكر أن « احتراما » هي سبب وقوف الطلاب ، وعلى هذا فهي المفعول لأجله ، أي السبب الذي فُعِل الفعْل من أجله ، وذلك هو ما يقوله النحاة ، فـ « الاحترام » هو الدافع الذي من أجله قام الطلاب . إن وقوفهم يمكن أن يكون من أجل إظهار الاحترام لأستاذهم أو للتعبير عن سخطهم عليه أو للاستهزاء به أو للانصراف عنه ... إلخ . يتضح هذا من الأمثلة الآتية : « وقف الطلاب سخطاً على أستاذهم ، أو استهزاءً به ، أو انصرافًا عن درسه » . فالضمير في اصطلاح « المفعول لأجله » يعود إذن على المصدر الذي فُعِل الفعْل لأجله ، ولا معنى لكل هذا التخبُّط ولا للقول بأن « الأستاذ » هو المفعول لأجله ، إذ الطلاب لا يقفون من أجل الأستاذ ، هكذا بإطلاق ، بل من أجل إظهار احترامهم له أو سخطهم عليه أو استهزائهم به أو من أجل الانصراف عنه كما قلنا .

ولعلّ السيد أوزون يكون قد فهم ، وإلا فعوضي على اللّه في الوقت والجهد الذي أنفقتُه في الشرح والتفهيم ، والذي سأنفقه كذلك في تفهيمه عَلاَمَ يعود الضمير في مصطلح « المضاف إليه » أيضًا ، إذ يظن أن « الهاء » في هذا المصطلح تعود على الاسم الأول

(١) ص ٧٧ ـ ٧٨ .

فى عبارة « شجرة الدر » وأمثالهـا ، ومـن ثم يقترح تغيير اصطلاح « المضـاف إليه » ليصبح « المضـاف إلى ما قبله »[1]. وفات مقدرته على الفهم أن «المضاف إليه» هو الاسم الثانى لا الأوّل ، فـ «شجرة» مضافة إلى « الدّر » ، و إذن فـ « الدرّ » مضاف إليه ، وذلك كما نقول إن « البيت » فى عبارة « وقفتُ أمام البيت » «موقوف أمامه» ، وإن «القِبْلة» فى عبارة « اتجهتُ إلى القِبْلة » مُتَّجَهٌ إليها ، وإن «المرآة» فى عبارة « نظرتُ فى المرآة » منظور إليها ... وهكذا . إنه لا يُعْقَل أن نقول ، فى « كتاب محمـد » و « أنف فاطمـة » و « ثَقْب الإبرة » ... إلخ ، إن محمدا هو المضاف إلى الكتاب أو إن الإبرة هى المضافة إلى الثقب . إن هذا قلب للأوضـاع ، لكن متى كـان عند زكـريا أوزون منطق حتى نطالبه باستعمـاله ؟ ومع ذلك فمن يدرى ؟ فقد تنزل عليه رحمة الله ويفهم ما قلناه !

ونغادر «المفعول لأجله» منتقلين إلى باب «الحال» ، ولكن يظل الارتباك باسطاً جناحيه على عقل السيد المؤلف وفكره ، فهـو يقف عاجزا أمام التفرقة بين «الحال» و «الصفة» ، وبدلاً من أن يحاول بذل الجهد كى يفهم يسارع فى عناد الصِّغار الذين يظنون أن على سنن الحياة أن تتغير كى تتوافق وما يشتهـون لا أن ينزلوا هم على

(١) ص ٨٦ .

حكمها ، قائلاً إنه لا يوجد فرق بين «راكضاً» في قول زيد : «خرج طلالٌ راكضًا من الملعب» ، و «راكض» في قول عمرو : «خرج لاعبٌ راكضٌ من الملعب» . والسبب؟ السبب هو أنه لايكفى ، فى هذه التفرقة ، أنه قد تصادف أن زيدا كان يعرف اسم اللاعب الذى خرج من الملعب فكان الفاعل معرفة ، ومن ثم كانت «راكضا» حالاً، وأن عَمْرًا للأسف لم يكن يعرف اسمه فاستخدم فاعلاً نكرةً، وترتب على ذلك أن رُفِعَت «راكض» على أنها صفة [1]. يريد ، فيما أتصور ، أن يقول إن صاحب الحال يجب أن يكون معرفة ، وما دام اللاعب فى عبارة عمرو ليس معرفة فكان لا بدّ من إعراب «راكض» صفةً ورَفْعِها من ثمّ . أقول : «يريد، فيما أتصور ، أن يقول:...» لأنه لم يقله صراحةً ، ولا أدرى أتصورى هذا صحيح أم لا ، ولكنى أحاول أن أحسن به الظن كى أجد لاعتراضه هذا أساسًا يقوم عليه ، وإن كان من الممكن ألا تكون المسألة واضحة فى ذهنه على هذا النحو . ولكن خلّنا فيما نحن فيه . ثم إنه يستمر فى اعتراضه قائلاً إن «راكض» وأشباهها لا تصلح أن تكون صفة لأن الصفات لاتكون فى الأمور الآنية والمؤقتة بل للخَلْق والخُلُق حسب عبارته [2]..

ونبدأ بالحديث عن صاحب الحال وهل لابد أن يكون معرفة

---

(١) أى نعت .

(٢) ص ٧٩ ـ ٨٠ .

فنقول إن النحاة يشترطون ذلك حتى لا يكون هناك لبس فى عبارة «قابلت طفلا باكيا فى الشارع» وأمثالها ، إذ نحتار بين إعراب «باكيا» صفةً (على أساس أنه قد تحقق فيها الشروط الأربعة من العشرة ، وهى أن تتوافق الصفة وموصوفها [(١)] فى الإفراد أو التثنية أو الجمع (وهما هنا مفردان) ، وأن يتوافقا أيضا فى التذكير أو التأنيث (وهما هنا مذكّران) ، وأن يتوافقا كذلك فى الرفع أو النصب أو الجرّ (وهما هنا منصوبان) ، ثم أن يتوافقا فى التعريف والتنكير (وهما هنا منكّران . ومعروف أن الحال لاتكون إلا نكرة، اللهم إلا فى بعض التراكيب المستثناة سماعا) ، وبين إعرابها «حالا» على أساس أن شروط الحال قد تحققت فيها ، وهى أن تكون منتقلة لا ثابتة ، أى صفة متغيرة لا ملازمة للموصوف ، وأن تكون مشتقة لا جامدة ، وأن تكون نكرة لا معرفة ... الخ [(٢)]. لكن لابد من التعقيب على ذلك بأن عبارة «قابلت طفلا باكيا فى الشارع» لا تغطّى كل التراكيب التى يمكن أن يرد فيها صاحب الحال نكرة ، إذ من الممكن أن يكون صاحبها مرفوعا كما فى قولنا : «خرج لاعبٌ راكضًا من الملعب» أو مجرورا مثل «أمسكتُ بلصٍّ مكتوفًا» . وعلى هذا فإنْ

(١) أى النعت والمنعوت .

(٢) انظر «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام ٢/٢٥٨ ومابعدها . وقد أهملت ذكر شرط رابع يختلف حوله النحاة ولايهم القارىء كثيرا .

خِيفَ اللَّبْس فى مثال «قابلت طفلا باكيا فى الشارع» بحجة أن «راكضًا» هنا تصلح (من الناحية النظرية) أن تُعْرَب صفةً وحالاً فى ذات الوقت ، فإنه لا ينبغى الخوف من ذلك فى المثالين الآخرين لأن التوافق فى الإعراب بين الفاعل أو الاسم المجرور وبين «راكضا/ مكتوفًا» غير متحقق ، إذ لايصح إعراب أى من هاتين الكلمتين صفة.

هذه واحدة ، والثانية أن النحاة قد أَتْبَعُوا كلّ شرط من الشروط التى ذكروها للحال بأمثلة لا جدال فى ورودها عن العرب وفى موافقتها للعقل والمنطق والذوق اللغوى ، ولكن لا يتحقق فيها هذا الشرط، بما يدل على أن هذه الشروط تغليبية لا حتمية، ومنها الشرط الذى يوجب أن يكون صاحب الحال معرفة، حتى إنهم استثنوا عدة حالات من ذلك . بل إن بعضهم لم يشترط هذا الشرط ، ومنهم سيبويه [1] ، الذى يهاجمه المؤلف بدءاً من عنوان كتابه رغم أنه لم يرجع إلى ذلك الكتاب ولا مرة واحدة ، ولا أظنه قد اطّلع عليه بل لا أظنه قد رآه قطّ . ومن الأمثلة التى يضربونها لذلك قولهم : «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا ، وصلى وراءه رجالٌ قياما» [2] .

---

(١) انظر «أوضح المسالك» ٢/ ٢٧٨ .

(٢) انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» ١/ ٥٨١ .

وعلى ذلك فلا أظن إعراب «باكيا» في عبارة «قابلت طفلا باكيا فى الشارع» على أنها «حال» أيضا إلا جائزاً ، وذلك إذا أردت القول بأننى قد قابلته وهو يبكى دون الاهتمام بالإشارة إلى أنه كان يبكى قبل مقابلتى إياه أو أنه استمر يبكى بعدها ، بخلاف ما لو أعربناها «صفة» ، إذ المعنى أنه كان يبكى قبل المقابلة (وربما بعدها أيضا). فإذا عدنا إلى المثال الذى ضربه المؤلف ، وهو «خرج لاعب راكض من الملعب» فإننا نقول إنه يجوز رفع «راكض» أو نصبها حسب نيتنا : فإن كان المقصود أنه كان يركض قبل خروجه (وربما بعده أيضا) قلنا : «خرج لاعب راكض من الملعب» ، أما إذا كان المقصود النص على أنه عندما خرج كان يركض دون أن نهتم بحالته قبل ذلك أو بعده (وربما لم يكن يركض قبله ولا ركض بعده) قلنا : «خرج لاعبٌ راكضا من الملعب» . وهى ، كما يرى القارئ ، نكات دقيقة. ولا يعترضَنَّ أحد على مثل هذه التدقيقات بحجة أن معظم الناس ليسوا مستعدين لتضييع وقتهم أو إرهاق أذهانهم فيها، إذ الردّ على هذا الاعتراض سهل بل واجب ، وهو أنه كلما زادت الرغبة فى هذه الدقة كان ذلك دليلاً على شدة الحساسية العقلية والتعبيرية .

أما لو أصر المعترض بعد هذا كله على اعتراضه فليعرف أن هناك من لا يضيقون بهذا من ذوى العقول الرهيفة والأفكار العميقة والثقافة الرفيعة. وعلى أية حال فالامتياز بطبيعته ذو تكاليف مرهقة

لايقدر على بذلها كل أحد . أما القول بأنه «كله عند العرب صابون» فهو عنوان على التخلّف ينبغي أن نكف عن ترديده. وما نجح الأمريكان والبريطانيون فى احتلال العراق فى هذه الأيام النّحِسات (وربنا يستر فلا يكررون ضربهم فاحتلالهم لبلاد عربية أخرى ، وليس هناك ضمان لشيء من هذا) إلا لأنهم ، إلى جانب أشياء أخرى ، أكثر تدقيقاً منا : فى التخطيط والمتابعة والصناعة والسلاح والتجسس والحرب النفسية وعمل الحساب لكل شيء . وفى كتب النحو الإنجليزية والفرنسية المطوّلة يجد القارىء هذه النكات الدقيقة التى قد يظن بعضنا أنها من سمات نحونا وحده . وبالمناسبة فاللغة الإنجليزية مثلاً تفرّق، كما تفرق لغتنا ، بين التركيبين اللذين نحن بصدد مناقشتهما ، فتقول فى «خرج لاعبٌ راكضٌ من الملعب» : "A run- nig fotball- player came out of the field" ، وفى « خرج لاعب راكضا من الملعب » : " A football - player came out of the field running » مما يدل على أن هناك نكتة دقيقة توجب التفريق هنا ، وهو ما شرحته آنفا.

وأخيراً فإن زعم السيد أوزون بأن الصفة[1] لاتكون إلا فى الخَلْق والخُلُق ، أى لابد أن يتحقق فيها الدوام والثبوت ، ومن ثم يجب

(١) أى النعت .

إعراب كلمة «راكض» فى قولنا : «خرج طلالٌ راكضًا من الملعب» و «خرج لاعبٌ راكضٌ من الملعب» حالاً فى الجملتين لأن الركض ليس صفة ثابتة فى الشخص ، إذ لا يمكن أن يظل الإنسان طول عمره راكضا ، فهو شرط غريب لم يقل به أحد قط . وفى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية يعربون كلمة «راكض» على أنها «adjectif, adjective, adjektif» ، أى «صفة» رغم أن «الركض» ليس من الصفات التى تلازم الشخص طول حياته . وواضح أن مؤلفنا الهمام قد أخطأ فهم قول النحويين إن من شروط الحال أن تكون منتقلة لا ثابتة ، فقام فى وهمه أن «الصفة» (أى النعت) ، بطريق المخالفة ، لابد أن تكون ثابتة فى الشخص لا تغادره ما لم يغادر الدنيا . فمن قال ذلك ؟ إن النحو لا يؤخذ من الأوهام ، وبخاصة إذا كانت أوهام السيد أوزون ، الذى يغرق فى شبر ماء ! إن الصرفيين يفرقون بين «اسم الفاعل» و «الصفة المشبّهة» فى بعض الأحيان على هذا الأساس ، لكن لم يحدث أن فرقوا بناء على هذا الاعتبار بين «الحال» و «الصفة» (أى النعت) . ومع ذلك فلا بد من القول إن كثيرا من صفات الخَلْق والخُلُق التى تُسْتَعمل لها الصفة المشبهة قد يعتريها التبديل : فالأعرج أو الأحول قد يبرئه الطب من حَوَله وعَرَجه ، والرخيم الصوت قد يصبح صوته أجَشّ ، والجميلة قد يعرض لها ما يشوّه وجهها ، والأسود البشرة قد يُجْرِى (مثل مايكل چاكسون)

عملية جراحية تبيّض وجهه . بل كثيراً ما نرى صبيانا وبناتٍ في صغرهم لا يلفتون نظرنا بوسامة أو جمال ، ثم إذا بهم بعد أن يكبروا وينضجوا يتحولون من حال إلى حال . بل لقد يصبح البخيل كريما ، والشجاع جبانا ، وهذا كله مشاهد في الحياة من حولنا .

وقبل أن ننتقل من «الحال» نأخذ في طريقنا ما يهرف به الكاتب الفهّامة من أن «فُرَادَى» أو «معًا» في عبارة مثل «جاء القوم معًا أو فُرَادَى» لايمكن أن تكون حالاً لأنها ، كما قال ، «لا تبيّن هيئة الأشخاص بل تبين كيفية مجيئهم» [1]. وقد ذكر «الهيئة» هنا بسبب ما قاله النحاة في تعريف الحال من أنها «وصفٌ فَضْلَةٌ منتصبٌ للدلالة على الهيئة» ، لكنه كالعادة قد أخطأ فهم «الهيئة» فتوهّم أن المراد بها هو شكل الوجه وما أشبه ليس إلا ، وأن الكيفية التي يكون عليها الشخص عند إتيانه الفعل أو عند وقوع الفعل عليه لا يدخل من ثم في «الهيئة». أرأيت، أيها القارئ الكريم ، عبقرية كهذه العبقرية؟ لكن «الهيئة»، رغم عجز كاتبنا عن الفهم ، تغطي هذا وذاك جميعا. وعلى هذا نقول في «الحال» إنها تدل على حالة الشخص أو هيئته أو موقفه آنذاك أو الكيفية التي أدى الفعل بها ، والمعنى في كل ذلك واحد ، فنقول مثلاً : «قابلني سعيد متهللَ

(١) ص ٨٠.

الوجه أو معسراً أو مسرعًا أو منفردا أو خالعا سترته أو صائحا من الألم أو وهو ذاهب إلى الجامعة أو وأبوه يضربه ... إلخ» .

هذا في الحال ، أما التمييز فحسبنا منه ما جادت به قريحة مؤلفنا الألمعي في إعرابه كلمة «أرضًا» في قولنا : « اشتريتُ دُونَمًا أرضًا » أو «اشتـريت دُونَم أرضٍ» ، إذ يركب دماغـه (أو دماغـه هي التي تركبه . لايهم) قائلاً إنها ليست هي التمييز لأنها لم تميز كلمة «دونم» ولم تزِلْ عنها الإبهام ، بل «الدونم» هو الذى ميّز الأرض لأنه قد بين لنا أن مساحة الأرض المشتراة مقدرة بالدونم لا بالفدان [(١)]. والواقع أن «دُونَمًا» في هذه الجملة مفعول به لأنه قد وقع عليه فعل الشراء ، لكن «الدونم» يحتاج إلى تحديد : أهو دونم مساكن مثلا أم دونم زراعة أم دونم قمامة أم دونم أرض ؟ وما دام السيد أوزون كثيرا ما يحاكم النحو العربى إلى قواعد الإنجليزية فإننا نسأله : كيف ياترى يعرب الإنجليز كلمة «دونم» في الجملة التالية : "I have bought a donum of land" ؟ إنهم يعربونها « a direct object »[(٢)]، أى «مفعولاً به» . ثم إن كانت كلمة «أرض» في «اشتريت دونمَ أرضٍ» هي المفعول فيه، فكيف يكون المفعول به مجروراً ؟ أليست هى

(١)ص ٨١ .

(٢) وبالفرنسية "un complément direct" بالمعنى ذاته .

«مضافا إليه» ، أو كما يقول هو بجهل ورعونة : «مضافا» ؟ فَلْيَثْبُتْ عبقرى آخر زمن على حلٍّ : مفعول به أم مضاف ؟ نفتح الشباك أم نغلق الشباك ؟ والواقع أن إعرابه للكلمة «مفعولا به» أو «مضافا» هو إعراب لايمكن أن يدور إلا فى ذهنٍ معطوب !

وفى عناده الضال المضلّ يتقدم السيد زكريا أوزون فرحًا منتفخًا ناظرا إلى عطفيه فى زهو وتيه متوقعًا أن نشاركه هذا الرضى السامى عن نفسه ، لكننا بكل أسفٍ وأسًى وندم لانستطيع مشاركته فى ذلك العبث الصبيانى الذى يستحق صاحبه أن يُشَدّ من أذنيه ويُقْرَص فيهما حتى يعرف أن الله حق ويتعلم أن يلزم حدوده فلا يحاول الوصول إلى أعلى ناطحة السحاب مرة واحدة ، بل عليه أن يبدأ الصعود إليه من الطابق الأرضى فالأول فالثانى فالثالث ... وهكذا إلى أن يبلغ القمة إن كان أُوتِىَ القدرة على مثل هذا الصعود ، وإلا فليبق حيث هو ، ولايكلف الله نفسًا فوق طاقتها ! ولكن ماذا قال مؤلفنا المزهوّ المنفوخ ؟ قال ، لا فُضّ فوه ، ولا برئ من ألم الحسد ولا الحقد شانئوه ! : إن «ما» عند النحويين تعمل عمل «ليس» ، يقصد أنها ترفع الاسم وتنصب الخبر كما يقولون ، لكنه سرعان ما ينتكس ذهنه وينقلب كل شىء فى عقله رأساً على عقب أو عقباً على رأس فيسأل: «لماذا لايكون التأويل : «لا أرى هذا بشرا» عوضا عن «ليس هذا بشرا» فتصبح «بشرا» بدلا (حسب مدرستهم وليس حسب رأينا) من

«هذا» ، التي تُعْرَب مفعولا به ؟» [١]. وأنا أتحداه وأتحدى كل من يقول بمثل هذا الهراء أن يذكر لي نحويا (نحويا واحدا لا النحاة كلهم كما يشير كلامه) يعرب «بشرا» في جملة « لا أرى هذا بشرا» بدلا من «هذا». إنهم يعربونها مفعولاً ثانيا لـ«رأى» (بمعنى «لا أستطيع أن أعد هذا واحداً من البشر بل هو ملك كريم») . أما إعراب الاسم الواقع بعد الإشارة بدلا فلا يكون إلا حين تدخل عليه «أل» في مثل «هذا الرجل أُحبّه» . لكن صاحبنا كعادته يغرق في شبر ماء رغم كثرة تصايحه بأنه من السباحين الكبار ! ومع ذلك لا يخجل أن يهاجم النحاة والنحو واللغة الفصحى ، وهو منطق العاجزين من ذوي الوجوه السميكة !

وهو يعترض على إعراب «أيّ» في جملة «أيَّ الطعام آكُلُ» مفعولاً به ، إذ المفعول به في رأيه هو «الطعام» [٢]، جاهلاً أن الطعام هنا لا يمكن أن يكون هو المفعول به لأن فعل الأكل لن يقع على الطعام كله بل على نوع منه أو أكثر يحاول السائل معرفته . إن إعراب اسم الاستفهام يتضح من إعراب ما يقابله في جملة الجواب ، وجواب هذا السؤال هو : «كُلِ البازلاء» مثلا. وبما أن الذى يقابل كلمة «أيّ» ، وهو «البازلاء» ، مفعول به ، فـ «أيّ» إذن مفعول به .

---

(٢) ص ٩٩ .

(١) انظر ص ١٠٨ .

وهذا إعرابها أيضًا فى اللغات الأجنبية ، ولكن ماذا نقول للعقول الغُلْف والقلوب التى عليها أقفالها ؟ ثم إن «الطعام» فى الجملة «مضاف إليه»، والمضاف إليه لايمكن أن يكون له إعراب آخر ، على عكس المضاف ، الذى يكون (إلى جانب كونه مضافا) مبتدأ أو خبرا أو فاعلاً أو مفعولاً أو مجرورا بحرف جر أو منادى ... إلخ . وحتى لو أعربنا «الطعام» رغم ذلك كله مفعولاً به ، فماذا سيكون إعراب «أىّ» فى هذه الحالة ؟ إن من أعجب العجب أن يتصدى هذا الجهل بكل سماكته لمثل تلك الأمور ، وهو لايعرف الألف من كوز الذرة[1] كما يقول العامة عن أمثاله ؟

كما يعترض مؤلفنا بنفس الجهل على ما يقوله النحاة من أن الجُمَل التى لا محل لها من الإعراب هى الجمل التى لا يمكن تأويلها بمفرد، ومنها جملة الصلة ، متسائلاً فى تهكم غبى : ما الذى يمنعنا من تأويل جملة «جاء الذى يحبه الناس» بـ «جاء المحبّب للناس مثلا»؟ ثم يجيب بجهل أشد غباءً قائلا : «فيأتى الجواب أنك أضفت للاسم المفرد : «المحبّب» إلى «الناس» ليكتمل المعنى» [2]. وهذان السطران هما الجهل المركّب بشحمه ولحمه : فأولاً جملة

(١) و «كوز» الذرة هو «العرنوس» عند إخواننا أهل الشام .

(٢) ص ١١٤ ، وواضح أن الجملة الأخيرة بحاجة إلى تصويب لتكون : «... أنك أضفت الاسم المفرد ... إلى الناس» .

«يحبه الناس» (التى هى جملة الصلة) لايمكن فعلاً تأويلها بمفرد ، أما الذى فعله سيادته فهو أنه استبدل بالاسم الموصول الذى صلته (يحبه الناس) اسمًا موصولاً آخر (هو «أل») وصلة أخرى (هى «محبَّب للناس») ، فهو لم يُحِلّ اسما مفردا محل جملة صلة بل أحلَّ اسما موصولا وصلته محل اسم موصول آخر وصلته، وبذلك عدنا إلى المربع رقم واحد من جديد ، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت .
وثانيًا أين الإضافة فى قوله : «المحبّب للناس» ؟ ترى كيف يمكن التفاهم مع صاحب مثل هذا العقل الغريب الذى لايفهم كسائر عباد الله ؟ وماذا نفعل مع من نقول له : «ثورا» ، فيقول : «احلبوه» ؟ وأعجب من ذلك أنه يهاجم النحو والنحاة باسم العقلانية والمنطق ؟ أية عقلانية ومنطق ياسيد أوزون ؟ لقد كدنا ، من كثرة ما ناقشنا هذا الجهل الذى يلبس لُبوس العقلانية ، أن نفقد عقولنا ! ستْرَك اللهم !

وبنفس هذا الجهل أيضاً يتناول إعراب آية «لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» ساخرا من قول النحاة إن «البر» خبر مقدم لـ «ليس» ، و «أن تولوا وجوهكم...» هو اسمها . إن سيادته يتوهم أن عبارة «أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب» هى جملة ، فكيف تكون إذن اسما لـ «ليس» ، رغم أن أيا من الجمل التى لها محل من الإعراب لايمكن أن تكون خبرا لـ «ليس» ؟[1]

(١) انظر ص ١١٩ - ١٢٠ .

وسرّ هذا التخبط هو حسبانه أن عبارة «أن تولوا وجوهكم ... » هى جملة ، مع أنها فى الحقيقة ليست كذلك ، بل هى مصدر مؤوّل بالصريح بمعنى «تولية وجوهكم» ، فهى اسم مفرد إذن لا جملة . ولكن لو أسقطنا الحرف «أنْ» وصار الكلام «تولّون وجوهكم» فقط لأصبح عندنا فى هذه الحالة جملة ، وكان اعتراضه يكون صحيحاً لو جاء الكلام هكذا : «ليس البرَّ تولّون وجوهكم ...». هذا هو الحق الذى لا مِرْيَة فيه والذى لا يستطيع السيد أورون أن يفهمه ! كان الله فى عونه ! وفى عوننا نحن أيضا!

والشيء ذاته نجده فى الفرنسية مثلا . وتدليلاً على ذلك أسوق ترجمة بلاشير وديمومبين فى كتابهما فى النحو العربى لقوله تعالى : «وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» ، إذ ترجماه هكذا : "Que vous supportiez (est) un bien pour vous"[1]. كذلك فمعروف أن اسم «ليس» هو فى الأصل مبتدأ ، وأن الـ "subject" فى الإنجليزية يقابل «المبتدأ» عندنا . ومن التراكيب الإنجليزية التى وردت فيها الجملة المسبوقة بـ "that" (وهى الجملة التى تناظر المصدر المؤوّل بالصريح فى لسان الضاد) « subject : فاعلا » ترجمةُ الآيتين الكريمتين: «وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ» ،«وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» عند شاكر وإرفنج

(1) Grammaire de l'Arabe Classique, P. 389.

على الترتيب هكذا : (١) « That you fast is better for you »، و"That you forego it is nearer heedfulness"(٢). ولعل زكريا أوزون تهدأ أعصابه بعد أن عرف أن الإنجليزية والفرنسية تصنعان الشيء نفسه الذى أنكره (بجهل طبعا) على لغة الضاد !

أما فى قوله تعالى فى الآية ١٦٢ من سورة «النساء» : «لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا» فيقول إننا نلاحظ أن كلمة «المقيمين» جاءت منصوبة بالياء ، والأصح أن تأتى مرفوعة (المقيمون) سواء كانت معطوفة على «الراسخون» أو مبتدأ بدأنا به الجملة الاسمية حسب مدرستهم ... إلخ» (٣). وفى هذا الكلام ما فيه من خروج على الأدب، فهو ينصّب نفسه حاكمًا على القرآن الكريم ولغته فيقول : «إن الأصح أن نقول كذا»، بما يعنى أن ما

---

(1) Holy Qur'an - Translated by M.H. Shakir, Ansariyan Publications, Qum, P. 25.

(2) Holy Qur'an - Translation and Commentary by T.B. Irving, International Publishing Co., Tehran, 1418 - 1998, P.20.

(٣) ص ١٢٤ .

جاء به القرآن أقل صحة . وهو بهذا يرتقي مرتقي صعباً بل مستحيلاً على أمثاله ، إذ قد رأينا بضاعته، وهي لاتعدو أن تكون من كناسة السوق آخر النهار ! ترى هل باستطاعته أو باستطاعة أحدٍ الآن أن يخطِّئ القرآن حتى لو قيل إنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إن اللغة إنما تؤخذ من القرآن، وهذا ما ينبغي أن يدين به كل أحد حتى الكافرون، إذ هو (في أسوإ التقديرات) كلامٌ قاله عربي أصيل وتحدى به العرب الأصلاء أجمعين فلم يردّ أحدهم بكلمة يُشتَمّ منها رائحة اعتراض أو تخطئة لشيء من أسلوبه ، وغاية ما قالوه : «لو نشاء لقلنا مثل هذا» ، ولم نسمع أحداً منهم يقول إن الصواب في هذه الكلمة منه أو الأصوب أن تكون كذا بدلا من كذا[1] ، فما معنى أن

(١) من هنا فلا معنى لاستدراك زكريا أوزون (هذا الاستدراك ذى المغزى) بأنه ، رغم كونه مسلماً مؤمنا بكتاب الله عز وجل ، لايمكنه فرضه على العربي غير المسلم ليكون مرجعيته العربية المعتمدة (ص١٧١) . أقول : لامعنى لهذا الاستدراك ، لأكثر من سبب : فأولاً لم يقل أحدٌ من المسلمين بفرض كتاب الله على أحدٍ، بل المنطق يفرض ذلك لكون القرآن المجيد نصاً عربيا ، فهو مرجع لقواعد اللغة ، مثله (على أسوإ تقدير) مَثَلُ شعر امرئ القيس وطرفة وعنترة وحسّان بن ثابت وكعب بن زهير ، وخُطَب قُسّ بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت ...إلخ . وثانياً فإن يهود العرب ونصاراهم يقرأون كتابهم المقدس مترجما إلى العربية الفصحى بنفس القواعد التي نزل بها القرآن ، وإن حاول زكريا أوزون عبثًا أن يُدْخِل في رُوع القارئ أن أهل الكتاب من العرب يقرأون كتابهم في لغة غير لغتنا أو على الأقل بغير العربية الفصحى، وهو بطبيعة الحال غير صحيح البتة . وثالثاً لماذا =

يأتى جُوَيْهِلٌ فى آخر الزمان فيقول إن الأصحّ أن تُرْفَع «المقيمين» ؟

وعلى طريقة «رمَتْنى بدائها وانسلّت» يرمى كُوَيْتِبنا نحاتنا القدامى بأنهم يتطاولون على كتاب الله . هكذا خَبْط لَزْق كما نقول نحن المصريين! أوَ تدرى ، أيها القارئ الكريم ، تهمة هؤلاء النحاة ؟ تهمتهم أنهم أعربوا كلمة «ملة» فى قوله عز شأنه : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» بأنها منصوبة على الإغراء[1] ، بمعنى «الزموا ملة أبيكم إبراهيم ولاتتخلّوا عنها» . فهل يستطيع أحدٌ القطط حاسة شم أن يجد فى هذا الكلام أية رائحة تطاول؟ إن كويتبنا قد أصيب إصابة قاتلة فى حاسة الشم لديه ، فهو ينفر من رائحة الورود والرياحين ويتأذى منها ، ويتلذذ بدلا منها بعطر

= يتحدث أورون أو غير أوزون باسمهم ، وهم ، والحمد لله ، ذوو ألسنة تستطيع التعبير عما تريد ؟ إن محاولة بعض المنتسبين إلى الإسلام دقّ الأسافين بين المسلمين وغير المسلمين فى الوطن العربى هى محاولة سخيفة ومتنطعة وسيئة المقصد . فليكفّ هؤلاء عن هذه الاستفزازات الشريرة التى تهدف إلى إثارة غير المسلمين ضد القرآن الكريم وأهله . إننا بطبيعة الحال نؤمن أن القرآن هو الكتاب الحق ، بَيْدَ أننا لانفرض هذا على أحد ، بل نرى أن من حق غيرنا أن يؤمن بعكس هذا تماماً ، لكن هذا أو ذاك لاينبغى أن يكون مدخلاً إلى الدعوة لنبذ اللغة العربية أو تجاهل القرآن الكريم فى قضية الصحة اللغوية لأنه ضد منطق اللغة ذاته .

(١) انظر ص ١٣٠ .

الجيَف والفضلات . وهذا هو السبب الوحيد الذى يمكن أن يفسر لنا توهّمه التطاول على كتاب الله فى كلام نحويينا المساكين . وإذا لم يكن هذا الإعراب يقنع كويتبنا أو لم يكن يعجبه ، فما هو الإعراب الصحيح فى نظره ؟ إنه لايقدم لنا شيئا بل يكتفى بالهدم (الهدم الأرعن الجهول) غير مُعَنٍّ نفسه بالبناء ، وهذا عيب آخر من عيوب الكتاب .

ما أسهل الهدم على أى متطاول أو أهوج امتلأت نفسه بشهوة الحقد والتدمير ، لكن العبرة بالمقدرة على البناء وتقديم البديل . إن الكاتب يعترض مثلاً على مفهوم «نائب الفاعل» ومصطلحه قائلاً «إن الأفعال المبنية للمجهول هى الأفعال التى حُذِف فاعلها وناب عنه غيره. وفى هذا التقسيم الرهيب نجد أن النحاة أيضا قد اهتموا بالحركة فى آخر الكلمة ، وهى الضمة فى حالنا ، ونسوا المنطق وإعمال العقل » ، ثم يضرب جملة «كُسِر الزجاجُ» مثلا على ذلك المبنى للمجهول ، ليعقب بقوله : «لقد لاحظ النحاة أن كلمة «الزجاج» فى مثالنا السابق قد جاءت مرفوعة ، فسمّوها «نائب فاعل» لأنها نابت عنه فى حركة الرفع ، ضاربين عُرْض الحائط بكل المعايير والمقاييس المنطقية . ويطلبون من الطلاب أن يفهموا ويحفظوا تلك القواعد التى لا تتطابق فيها الدلالات والمدلولات . ثم كيف لنا أن نقول فى إعراب «كُسِر» : فعل ماض مبنى للمجهول ؟ كيف

نبنى أمرا على المجهول؟ وهل يُبنَى شيء على ما يسمَّى المجهول ؟ فالمجهول غير معروف ، فكيف نبنى عليه ؟ ما هذا الكلام؟ وما هذه المعانى التى لا نرى عند فكفكتها إلا الخروج عن كل ما يمكن تصوره فى عقولنا من مفاهيم وأفكار؟» [1].

والواقع أننى لم أملك نفسى عند قراءة هذه السطور من القهقهة. ذلك أن الكاتب يقول : «عقولنا» ، وكأن عند أمثاله عقولا ! وطريقة تفكيره هنا قد أيقظت من بين ركام الذكريات فى ذهنى الدليل الذى كان يستدل به شيخ أمىٌّ بقريتنا فى صباى البعيد على أن أبا بكر الصديق كان يكبر النبى عليه السلام سنا ، إذ كان هذا الأمى العجوز يضيف قائلاً : «والدليل على ذلك أن الرسول كان يناديه : يا أبى بكر» . يظن أنه كان يقول : «يا أبى» على سبيل التبجيل لأنه فى سن أبيه ! فهذا من ذاك ، وعقل الأستاذ أوزون وعقل ذلك الأمى متطابقان كحَذْوِكَ النعل بالنعل ! وكنا نحب لو أن الأستاذ المؤلف النحرير قد فطَّننا إلى وجه الصواب فى هذا الموضوع ، لكنه أبى إلا أن يحرمنا من علمه الغزير ويتركنا فى الظلام الحالك نتخبط . كان الله فى عوننا !

ومع ذلك فلنحاول ، على ما فى عقولنا من كلال وقصور ، أن

---

(١) ص ٤٢ - ٤٤ .

نبحث الأمر لعلنا مستطيعون أن نبلغ فيه ما يشفى صدور قوم جاهلين حائرين . إنه يستغرب كيف يُبْنَى أمرٌ على مجهول . حسن ، أوليس كثير جدا من الأبنية فى العالم مبنيا على مجهول؟ ألا تقيَّد كثير من القضايا فى المحاكم ضد مجهول ؟ أليس بين البشر من هم مجهولو الأب والأم ؟ أو ليست حياتنا نحن بنى الإنسان مبنية فى أغلبها على مجهول ما دمنا لم نُؤْتَ من العلم إلا أقل القليل ؟ إننى أستطيع أن أمضى فى ضرب هذه الأمثلة فلا أنتهى ، بيد أنى أضيف هذا المثال ثم أكفّ بعده ، فأقول : ألستُ أنا الآن أردّ على زكريا أوزون وأنا لا أعرف عنه شيئا ، فهو بالنسبة لى، وكذلك بالنسبة للقراء الذين سيقدَّر لهم أن يقرأوا كتابى ، مجهول ؟ ألستُ ، وأنا أكتب هذا الكتاب ، أجهل ما إذا كان سيُنْشَر أو لا ، وأى دار نشر ستنشره إن قُيِّضَ له أن يُنْشَر ؟ هل منعنى شىء من هذا أن أكتبه وأتحمس له ؟

أما «ما معنى مصطلح «المبنى للمجهول» ؟» فهو أن الفعل صِيغَ على أساس أن الفاعل مجهول ، فهو إذن لم يُبْنَ لفاعلٍ معلوم بل لفاعلٍ مجهول ، فسُمِّىَ من هنا «مبنيا للمجهول» . أيجد القارئ فى هذا التفسير أدنى صعوبة؟ بيد أن كاتبنا اللوذعى لا يسع عقله أن يفهم ذلك التفسير . وأترك للقارئ الحكم على مثل ذلك الرجل الذى لايعجبه مع هذا أحد ! ثم إن ذلك التركيب معروف فى اللغات الأخرى ، فلماذا الإنكار على العربية وحدها ؟ وإذا كان ذلك

التركيب لا يعجب صاحبنا ، فأين البديل الذى يطرحه عوضا عنه ؟ وفضلا عن هذا ففى الإنجليزية والفرنسية يسمون هذا التركيب "passive voice/ voix passive" ، أىْ «صوت سلبى»، فماذا يقول السيد المؤلف فى هذا ؟ أتراه سيصبح مستنكرا أن يُبْنَى الفعل على صوت سلبى ؟ لا إخاله يفعل ذلك ، فالعفريت الذى عليه لا يهيج ولا يُسْتَفزّ إلا إذا ذُكرت اللغة العربية والنحو العربى والنحاة العرب ! إنه عفريتٌ تخصّصُه الرغبةُ فى تحطيم لغة القرآن! بل إن هذه اللغات تظل محتفظة للاسم الذى يحل محل الفاعل باسم «الفاعل» رغم أنه لم يفعل الفعل ولا تحقق من خلاله الفعل بل وقع عليه الفعل . إن اللغة العربية تسميه فى هذا الحالة «نائب الفاعل» ، وهى تسمية فى موقعها تماما ، إذ إن «الفاعل» قد غاب وحل هذا محلّه وناب عنه، فقد جاء بعد الفعل مباشرة فى المكان الذى يشغله الفاعل، كما تغيرت حالته من النصب إلى الرفع . فأى هذه اللغات هى اللغة الأكثر دقة ؟ أليست لغة القرآن؟ ولكن ماذا نفعل للذين فى وجوههم عيون ولكنهم لايبصرون ، وفى أدمغتهم أمخاخ إلا أنهم لايفهمون ؟

ومن اعتراضاته التى يكتفى فيها بالرفض والتصايح ثم لا يقدم البديل (وما أكثر ذلك كما قلت!) رفضُه إعراب «الياء» الملحقة بالفعل فى «أكرمنى ربى» وأشباهها من الجمل على أنها ضمير

متصل فى محل نصبٍ مفعول به ، قائلا فى تهكم مضحك : «ما معنى ذلك ؟ وما هذا الأسلوب فى المحاكمة والتفكير؟ ». وتتساءل : أين المحاكمة هنا ؟ ومن يحاكم من ؟ ولا تسمع لسؤالك غير رجع الصدى ! ومنها أيضا تعليقه على إعراب «الواو» التى قبل «العصا» فى بيت المتنبى المشهور :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد(١)

بأنها «واو الحال» ، إذ يتساءل فى غضبٍ نَزِقٍ : «ماذا نعنى بقولنا إن الواو (وهى حرف) حالية؟ إن هذه التسمية لامبرر لها (حتى لو قال بعضهم بأن الجملة بعدها فى محل نصب حال) ولا مدلول لها، وهى وهم لتأويل وهمى يأتى بعدها» (٢)، ثم ينتقل إلى شىء آخر وكأنه قد قال كلمة الفصل التى لاتحتاج إلى مزيد ، مع أنه لم يقل شيئا !

ومن هذا الوادى كذلك سخطه على من يعرب «ما» والفعل التالى لها فى قوله تعالى : « ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» بأنها

---

(١) صدق المتنبى : «إن العبيد لأنجاس مناكيد!» ، ومنهم عبيد الفكر والعقيدة : سِحَنهم كسِحَنِنا ، وأسماؤهم كأسمائنا ، ولكن قلوبهم تبغضنا وتبغض مقومات وجودنا وحضارتنا!

(٢) ص ٨٠ .

«مصدرية غير ظرفية» وأنها وما بعدها فى تأويل مصدر فى محل جر بحرف الجر تقديره «برُحْبها» ، قائلاً : «ما هذا التفكير والتأويل العقيم؟ وما حاجتنا إلى تأويلٍ أو استبدالٍ ... «بما رَحُبَتْ» ... بـ«رُحْبها» ؟ ما هو الدافع ؟ وما هو الهدف؟ وما هى الغاية؟ وما الفائدة من مصطلح « مصدرية ظرفية وغير ظرفية » ؟ ما هذه المصطلحات التى أفقدت اللغة جمالها وجعلتها وهما لا حقيقة ؟ وهل هذا التخيل الخيالى يغنى الآيات الكريمة السابقة ويوصلنا إلى معناها الحقيقى أم يبعدنا عنه ؟»[1]. ثم لا يشغل نفسه ولو لثوانٍ فى اقتراح البديل ، متصوراً أن فى الفهم العامى لهذه الآية التى يأخذها «شرْوَة» دون تدقيقٍ وتعميقٍ الغِنْية كلّ الغُنْية ، معيداً إيانا بهذه الطريقة إلى ماضى البشرية السحيق أيام أن كانت الأمور تُدْرَك إدراكا شاحبا لا يتعلق منها إلا بخطوطها العراض ! وعلى ذلك قِسْ سائر تعبيراته المنفعلة التى ترمى أشداقُها بالزَّبَد فى كل اتجاه دون أن تقدم لك شيئا والتى يمكنك أن تجد بعضًا آخر منها فى الصفحات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢، ٤١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨، ٧٥ ، ١٣٤ ... إلخ .

وإلى جانب ما مرّ ينبغى أن نضيف ما قاله فى مسألة «المصطلحات» ، إذ ثمة مصطلحات ينبغى فى رأيه أن تغيّر ، ومنها

---

(١) ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

مصطلح «الحرف» مثل «قد، ومِنْ والواو وهَلْ ولمْ وما وإلى وسوف ... إلخ » ، فهو يرى أن استعمال هذا المصطلح لتلك الكلمات وغيرها هو استعمال خاطئ ويجب نبذه والاستعاضة عنه بكلمة «الأداة» . وشُبْهته أن «عن» مثلا مؤلفة من حرفين لا حرف واحد، و«إلى» مؤلفة من ثلاثة أحرف ، و «لكنّ» من أربعة ... وهكذا ، فلا تطابق إذن بين الدالّ والمدلول [1] . ومن الواضح أنه لايفهم معنى كلمة «مصطلح» وأنه لايتطابق عادةً مع المعنى اللغوى الأصلى للكلمة ، فـ«الصلاة» مثلا تعنى فى الأصل «الدعاء» ، لكنها فى الاصطلاح تعنى شيئا آخر أوسع من الدعاء وأكثر تعقيدا . وعلى هذا فليس هناك أدنى خطإ فى استعمال مصطلح «حرف» للدلالة على «قد» أو «سوف» أو غيرهما من الكلمات المكونة من أكثر من حرف . وهذا لو كان الحرف يعنى فعلا فى أصل اللغة الألف والباء والتاء ... إلى آخره . لكن هل هناك دليل على هذا ؟ إن هذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم بمعنى «الحرف الهجائى» ، أما بالنسبة للشعر الجاهلى فإن الانطباع الذى عندى أنه ، مثل القرآن ، يخلو من استعمال هذه الكلمة بالمعنى الذى نتحدث عنه الآن . لكن هناك حديثًا يقول فيه

(١) انظر ص ٢٥ ، ٣٢ .

الرسول : «لا أقول: «ألم» حرف ، ولكن «ألف» حرف ، و«لام» حرف ، و «ميم» حرف» ، فإذا صحّ هذا الحديث يكون الرسول عليه السلام قد استعمل كلمة «حرف» للدلالة على كلمة من ثلاثة أحرف ، وللدلالة أيضًا على كل حرف من أحرفها الثلاثة ، وبذلك لا نستطيع أن نجد فى ذلك الحديث حجة تدعم هذا الرأى أو ذاك . وأيا ما يكن فكلمه «حرف» كانت تعنى فى البداية «طرف الشيء» كما جاء فى الآية ١١ من سورة «الحج» ، ولو أخذنا برأى السيد أورون فسوف نعترض على استخدامه بمعنى «الحرف الهجائى» أيضًا .

ثم ماذا يقول فى استعمال القرآن الكريم للفظ «كلمة» إشارةً إلى عبارة مكونة من عدة كلمات لا من كلمة واحدة ، وذلك فى قوله عز شأنه : «قال (أى الكافر) : «رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» ؟ فالكلمة هنا تشير إلى قول الكافر : «رب ، ارجعون لعلى...» . كذلك ما العمل فى «الحروف» المكونة من حرف واحد مثل «الواو والباء والتاء واللام والسين وهمزة الاستفهام» ؟ أنستبقى لها مصطلح «الحرف» ؟ ونفس الشيء يقال عن «الأداة» ، التى يقترحها ذلك الهمام ، إذ «الأداة» (كما نعرف جميعا) هى الآلة التى يستخدمها كل صاحب حرفة فى عمله ، ومن

ثم فمن السهل الاعتراض عليها بذات الطريقة التى يعترض بها السيد أوزون على مصطلح «الحرف» . ولسوف ندخل بتلك الطريقة فى متاهة لا يمكننا الخروج منها !

ومن ذلك اعتراضه المتكرر على مجىء «المبتدإ» متأخرا عن الخبر وسخريته من هذا وتأكيده أنه تناقض ، إذ كيف يكون «مبتدأ» (أى تبتدئ به الجملة) ومع ذلك يتأخر إلى وسطها أو آخرها؟ [1] وواضح أنه يأخذ كلمة «المبتدإ» على معناها الحرفى غافلاً عن أن هذا اصطلاح ، وفى الاصطلاح لا تبقى الكلمة على معناها اللغوى الأول بل يعتريها بعض الانزياح من خلال توسيع المعنى أو تضييقه أو الانتقال به من الحقيقة إلى المجاز ... وهلم جرا : فـ «الفاعل» مثلاً فى النحو لا يُشْتَرَط فيه أن يكون قد فعل الفعل ، كما هو الوضع مع أفعال مثل «مَرِضَ» و «عَطِشَ» و «مات» . أما الأمر فى «الجرّ» فأوضح كثيرا ، إذ ما علاقة «الجرّ» على المعنى الذى نعرفه بكسر الاسم مثلاً؟ وعلى هذا يقاس استعمال مصطلح «المبتدإ» ، الذى قد يأتى فعلاً فى أول الكلام كما فى قوله تعالى : «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أو يتأخر عن الخبر كما فى عنوان الفلم المشهور : «فى بيتنا

(١) انظر مثلاً ص ٢٩ ، ٣٠ ، ١٢٣ ، ١٣٧ .

رَجُل». ولم يشترط النحاة فى المبتدإ أن يأتى فى أول الكلام ، فقد جاء فى شرح ابن عقيل مثلاً أن «المبتدأ» اسم أو بمنزلته ، مجرد عن العوامل اللفظية أو بمنزلته ، مخبرٌ عنه ، أو وصفٌ رافعٌ لمكتفًى به»[1] . بل إنهم نصّوا نصاً على مجيئه فى عدد من الحالات متأخرا عن خبره، وهذا متعالم لا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه . ومع ذلك فإن من الممكن المجادلة بأن المبتدأ إن تأخر فى بعض التراكيب عن خبره فليس هذا هو الوضع الأصلى له ، بل الوضع الأصلى هو تصدره للجملة ، وهذه عملية يقوم بها الذهن تلقائياً . وفى التوليدية التحويلية فى النحو ما يسمونه بـ «البنية العميقة للجملة» ، والمقصود بذلك التركيبُ الأصلىُّ الذى يمكن أن يدخل عليه مع هذا من التحوير ما يتولد معه تراكيب أخرى تخالف ذلك التركيب . وفى اللغة الإنجليزية والفرنسية يقابل الـ "subject / sujet" المبتدأ، وهذا الـ "subject / sujet" موضعُه عندهم فى صدر الكلام، لكن هذا لايمنع أن يتأخر فى بعض الحالات عن الخبر (the predicate / le prédicat)، وهو ما يسمونه : "inversion" ، أى «الانقلاب» ، أو باصطلاح النحاة عندنا : «التقديم والتأخير» . وحتى فى الحياة العملية كثيرا ما يتقدم المرؤوس على الرئيس كما هو الأمر عند إلقاء

---

(١) شرح ابن عقيل ١٦٧/١/ .

الحاكم خطابا مثلاً ، إذ يسبقه المذيع ليعلن عن هذه الخطبة للجمهور. كما كان الملوك قديماً يأمرون طباخيهم أن يتذوقوا الطعام الذى يقدمونه لهم قبل أن يمدوا هم أيديهم إليه حتى يطمئنوا إلى أنه غير مسموم . ولكن ياويل من تسوّل له نفسه ، فى غير هذه الحالة ، أن يمدّ يده إلى الأكل قبلهم ! وفى كل بلاد العالم يجلس المدرس فى صدر الفصل مواجهاً التلاميذ ، ورغم ذلك قد تضطره الظروف أن يترك هذه الصدارة ويقف وراءهم فى آخر الغرفة ، وذلك عند قيامه باستخدام آلة عرض الشرائح والصور مثلا . ثم ألم تسمع ياسيد أوزون أن لكل قاعدة شواذّ ؟ فلا تكن حنبليا هكذا يا أخى ، هداك الله ! ولا تكن مناكفاً ، فكلما قال النحويون شيئا قلت أنت عكسه كأنك «الشريك المخالف» !

وأعجب من ذلك وأدعى إلى الدهشة استنكار كاتبنا مصطلح «الأسماء الموصولة» ودعوته إلى تسميتها هى أيضًا «أدوات» . وشبهته فى هذا أنها «ليست معارف» [1]، بما يعنى أن «الأداة» عنده تقابل «المعرفة» ، والمعرفة أحد قسمى «الاسم» من حيث التعريف والتنكير . أى أنه يعدّ الأسماء الموصولة «أسماء» لكنها غير معرّفة ، ومع ذلك وضعها هى و«الحروف» فى سلة واحدة مطلقاً عليها جميعاً «أدوات». فأى اضطراب فى الفهم والتصنيف هذا ! واضح أن الرجل

---

(١) انظر ص ٦٠ .

قد زَجَّ بنفسه فيما لا يفهم أو يُحْسِن . وهى جرأة منه لا أملك إلا أن أعترف بأنى أحسده عليها ، إذ إنى من الذين إذا فكروا فى كتابة شىء شعروا بالرهبة واتهموا أنفسهم وتريثوا قبل الاعتراض على شىء وراجعوا ما يَعِنّ لهم قبل تسجيله على الورق ونظروا فى الآراء الأخرى التى قيلت فى الموضوع لعلها أن تنبههم إلى أخطاءٍ يستدركونها قبل إذاعتها على الجمهور ، ثم هم يتهمون أنفسهم ويحبون أن يضعوا فى حسبانهم بعد ذلك كله أن من الممكن أن تكون بعض الأخطاء قد تسرّبت إلى ما كتبوه ، أما السيد أوزون فإنه، فيما هو بيّن من الكتاب الذى بين أيدينا ، يهجم على موضوعه رغم قلة البضاعة من الفهم والتصور والقراءة غير مبالٍ بالموقع الذى تقعه كلماته واعتراضاته ، إذ يكفى أن يطلق لقلمه العنان فيكتب القلم ما يخطر له ، والقلم (كما نعرف) جماد لم يُرْزَق للأسف عقلاً ولا مقدرة على المراجعة والتثبُّت ولا يعرف شيئا اسمه التشكك !

أما لماذا يرفض المؤلف العبقرى أن يعُدّ «الاسم الموصول» معرفةً فيتضح من المثال التالى الذى ضربه ، وهو : «جاء الذى لايعرفه أحد» ، إذ يعلق بأننا «عندما نقول : «جاء الذى لا يعرفه أحد» يتضح تماما أن «الذى جاء» غير معروف من أى شخص ، فكيف يكون معرفة؟» [(1)]، ناسيا أن عبارة «الذى لا يعرفه أحد» قد عرِّفت به

(١) ص ٦٠ .

وبيّنت لنا أنه غيـر مـعـروف لنا ، وهو مـا يميـزه عن البـاقين الذين نعرفـهم. وهذا هو التـعريف المراد عند النحـاة لا التـعـريف بمعنى أن الشخص معروف الاسم والسنّ ولون البشرة والطول والعرض والوظيفة والبلد وتاريخ الميلاد والأسرة التى ينتمى إليها ...إلخ ، يعرف ذلك عنه القـاصى والدانى والدنيـا جـمـعـاء ، وإلاّ فليس هناك من الأشـخـاص المعـارف إلا أقل القليل، وهم الذين طبـقت شـهـرتهـم الآفـاق وكـانت لهم سمعة عالمية ، وإن أمكن التشكيك حتى فى هؤلاء لأنه لايوجد إنسـان يعرفه كل أحد على وجه البسيطة! ومع ذلك فـمن الممكن مجاراة السيد أوزون على فهمه هذا السقيم كى نريح أنفسنا من عناء مثل هذه المناقشات الفارغة فنقول : لا مانع عندنا من إخراج «الاسم الموصول» فى هذا المثال وأشباهه من «المعارف» وإدخال الأمثلة الباقية فيـهـا كـقـولنا : « هَلّ علينا الذى ألّف كتـابا بعنوان «جناية سيبويه» بطلعته البهية » . وأنا على يقين أنه سيوافقنا على هذا الحلّ السعيد الذى سيـملأ قلبه نشوة وحبورا بل سيرجع عن اعتراضه على المثال السابق ويقول : «خلاص! الاسم الموصول من أعرف المعارف ، وليس معرفة فقط» ! أو ليس مضحكا أن يتصدى إنسان بهذه العقلية للنحو وقضاياه؟ بلى هو مضحك غاية الإضحاك ، ولكنه ضحك كـالبكا ، وقديما قيل : «شرُّ البليّة ما يُضْحِك» !

وبالمناسبة فزكريا أوزون ، رغم اعتراضه العنيد اللدود على مصطلح «الحرف» و «الاسم الموصول» ودعوته إلى الاستعاضة عنهما بمصطلح «الأداة» ، قلّما يستخدم هذا المصطلح الأخير بل يجرى على استخدام المصطلحين المرفوضين فى معظم الحالات ، وهو ما يدل على أن الرجل يكتب ما يكتب دون وعى ، فهى حالات نفسية غير مترابطة يمرّ بها مرّا دون أن يكون له موقف محدّد . إنها تحبير صفحات والسلام ، كى يقال إنه كاتب . فقد قلناها ، والحمد لله ، وأثلجنا صدره ! لكن أيُّ كاتب ؟ هذا هو مربط الفرس! وبالمناسبة أيضًا فالإنجليز والفرنسيون والألمان يسمون هذه الأسماء الموصولة : «ضمائر» . وإنى أعلن أسفى المرّ لأنهم قد خيّبوا كالعادة ظن السيد أوزون فلم يسمّوها «أدوات» رغم أنهم ليسوا من ذرية سيبويه أو يمتّون بالقرابة للزمخشرى أو ابن عقيل أو الصبّان ! ألا تبًّا لهم وسُحْقًا !

ومن المصطلحات التى سخر كاتبنا منها ومن النحاة بسببها مصطلحُ «الفعل المضارع» ، الذى يقترح أن يغيّر إلى «الفعل الحاضر» حتى «يصبح أقرب إلى الذهن» ، ثم يعقب قائلا إن «السادة النحاة مع ذلك لم يغيروا قرآن سيبويه وأتباعه ليقولوا : «فعلا حاضرا» عوضا عن «فعل مضارع» ... إلخ» . وعنده أن النحاة قد سمّوْه «مضارعا» لأنه «يضارع الاسم فى حركاته : فهو مرفوع مرة ،

ومنصوب مرة ، ومجزوم أخرى »[1]. ومن الجليّ أنه يخلط بين حالات الإعراب (وهى الرفع والنصب والجزم) والحركات (من ضم وفتح، إضافة إلى السكون ، وهو انعدام الحركة)[2] ، وهذا أمر غريب ممن يرى فى نفسه القدرة على مناطحة سيبويه ونظرائه . ومن الجليّ أيضاً أنه لا يعرف أن «المضارعة» لا تعنى هذا الذى قال ، وبخاصة أن «الجزم» ليس من حالات الإعراب فى الأسماء ، بل يقول النحاة إن «شَبَه الفعل المضارع للاسم (والمقصود «اسم الفاعل» لا الاسم بإطلاق) حاصل فى اللفظ والمعنى : أما شبهه إياه فى اللفظ فلأنه يجرى معه فى الحركات والسكنات (يقصدون أن «ينْصُر» مثلا يبدأ بحرف متحرك هو الياء ، يليه حرف ساكن هو النون ، فحرف متحرك هو الصاد ، كما هو الحال فى «ناصر» (اسم الفاعل منه) ، فهو يبدأ بمتحرك هو النون ، يليه ساكن هو ألف المد ، فمتحرك هو الصاد. وهذا كما يرى القارئ الكريم شيء مختلف عما يقوله زكريا أوزون) ، وكذلك فى تعيين الحروف الأصلية والحروف الزائدة (فى أن كلا منهما مكون من نفس العدد من الحروف الأصلية ونفس العدد

(١) ص ٣٥ .

(٢) علاوة على أن علامات الإعراب ليست دائما حركات بل قد تكون حروفا أو حذفا للحروف.

كذلك من الحروف المزيدة ، والأصلية هنا ثلاثة هى النون والصاد والراء ، والمزيدة حرف واحد هو الياء فى الفعل ، والألف فى اسم الفاعل) . وأما شَبَهه إياه فى المعنى فلأن كلا منهما صالح للحال والاستقبال ، ثم تقوم قرينة لفظية تخصصه بأحدهما» [1]. ويمكن التمثيل لدلالتهما على المستقبل بقوله تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الكهف : «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» ، فاسم الفاعل هنا يتعلق بالمستقبل لا بالحاضر ، والقرينة هى كلمة «غدا» ، أما المضارع فإنه يدل على الاستقبال قولا واحدا مع «السين وسوف ولن» ، وكثيرا مع «قد» ، وأحيانا دون أى حرف من هذه الأحرف ، إذ قد نقول : «أفعل ذلك إن شاء الله» بمعنى «سأفعل» ، كما قد يدل على الاستمرار أو على العادة فلا يختص بزمن دون زمن كقولنا : «تدور الأرض حول الشمس» ، و «ينام سعيد ظهرا ، ويذهب إلى المقهى مساء» . وعلى هذا فالمصطلح والتعريف اللذان ساقهما السيد أوزون ليسا أكثر من كلام فارغ كمعظم ما قاله فى كتابه الفَطِير الذى يريد أن يطاول به الجوزاء ويهدم الرواسى الشمّاء!

---

(١) شرح ابن عقيل ١/ ٢٧/١ /هـ ١ .

والسيد أوزون يرفض إعراب الجُمَل جملة وتفصيلاً ، مؤكداً أن «ما يسمى إعراب الجمل» ، سواء كان لها محل من الإعراب أوْ لا ، ما هو إلا وهم وإضاعة للوقت علينا التخلص منه لأن فى ذلك عين الصواب وصحة المعنى ومطابقته للحقيقة والواقع» [1] ، والواقع أنه ليس للواقع أى مدخل فى ذلك عكس ما يهرف به الكاتب ، إذ ما دخل الواقع فى أن تُعْرَب الجُمَل أوْ لا ؟ هل فى ذلك مصادمة لسنّةٍ من سنن الكون؟ أبداً . هل فيه عدوان على حقوق الإنسان ؟ هل يمثل خروجا على مبادئ الأمم المتحدة ؟ هل يمنع الشمس من الشروق صباحا ؟ أبداً أبدا . إذن فكل ما قاله لا يساوى شرْوَى نقيرا!

وبالله ماذا نفعل أمام مثل هذه الجملة : «محمد يلعب الكرة فى الحديقة» أو تلك : «قال سعيد : إنى قادم بعد أسبوع» ؟ إن «محمد» (فى الأولى) مبتدأ («subject» فى الإنجليزية) ، فأين خبره (the predicate) ؟ إنه «يلعب الكرة فى الحديقة» . وعبارة «قال سعيد» (فى الثانية) هى فعل وفاعل ، ولابد معهما من مفعول ، وإلا فماذا قال ؟ ومفعوله هو جملة «إنى قادم بعد أسبوع» . ترى ما الخطأ فى هذا الكلام ؟ وما الذى فيه مما يخالف الواقع ؟ ليس من المعقول أن نقول إنّ «محمد» مبتدأ ثم نسكت ، أو نقول إنّ «قال سعيد» فعل

(١) ص ١١٦ – ١١٧ .

وفاعل ثم نكتفى بذلك . إن الكلام على هذا النحو يكون ناقصا ، ولابد للناقص من أن يكمل. إن هذا قانون من قوانين الحياة والواقع، أما الذى يخالف الواقع وقوانينه فهو كلام السيد أوزون الذى لا نستطيـــع أن نعرف له رأسًا من ذيل .

إننى أفهم بل أحبّذ الدعوة إلى عدم الإسراف فى التفاصيل الإعرابية الخاصة بالجمل والاكتفاء بالقول إن هذه الجملة خبر أو مفعول أو حال... إلخ، وبخاصة لغير المتخصصين . إن النحويين عندما يقولون إن الجملة الفلانية المكونة من فعل وفاعل أو من مبتدإ وخبر مثلاً فى محلّ نصبٍ حال ، إنما يريدون أن يكون الطالب على ذُكْرٍ من القاعدة العامة لا تغيب عن عينيه أبدا ، إذ معنى «فى محل نصب» أنها تحتلّ موضعا حُكْم الاسم الذى يحتلّه عادةً هو النَّصْب . صحيح أن إعراب الجمل لن يقدّم ولن يؤخّر لأنه لن تظهر عليها أية علامة إعرابية ، لكن إعرابها (كما قلت) يذكّر بالقاعدة ويثبّتها فى أذهان الطلاب ، ويملأ الفراغ الناقص الذى أشرت إليه آنفا . ومثلها الأسماء والأفعال التى يتعذر ظهور علامة الإعراب على آخرها أو يستثقل الذوق العربى العام ذلك. أما الجمل التى لا محل لها من الإعراب فليس هناك ما يدعو إلى الاشتغال بها .

وإلى القارئ هذا الاقتباس من كتاب «إعراب الجمل وأشباهه»

للدكتور فخر الدين قباوة ، إذ قال إن الجمل قسمان : «الجمل التى لاتحلّ محلّ المفرد (أى لاتحل محل الاسم) ، وهى لا محل لها من الإعراب لأنها لم تُسْتَخْدَم فى موضع المفرد ولا يمكنها أن تُقَدَّر به ليتيسر تقدير حركات الإعراب التى قد تظهر على ذلك المفرد ... ، والجمل التى تحلّ محلّ المفرد ، وهى تأخذ إعرابه تقديرا لأنها وقعت فى موضعه وقامت مقامه ... ولا بد ههنا من الإشارة إلى ناحية ذات أهمية ، وهى أن الجملة التى لها محلّ من الإعراب يجب أن تكون واقعة فى موقع المفرد ، والموقعُ له بطريق العاريّة ، وإلا فقد وقعت الجملة فى موقعها الأصلى ، وهو موقع ما لا محل له من الإعراب كالذى تراه فى صلة «أل» الموصولة »[1].

وما دمنا فى الحديث عن الجمل فلا بأس أن نستطرد قليلا فنقول إن من المستحسن القول فى الجمل الفعلية والاسمية إن الأولى تتكون من فعل وفاعل ومفعول / أو مفعولين (إلا إذا حُذِف الفاعل وقام المفعول مقامه فيكون عندنا فعل ونائب فاعل ، أو فعل ونائب فاعل ومفعول) أو من فعلٍ وفاعل وتتمّة ، وذلك فى الأفعال التى تسمّى حسب المصطلحات الحالية أفعالاً ناسخة، وهى «كان وأخواتها» و«كاد وأخواتها» ، والمقصود بـ «الفاعل» هو ما نطلق عليه

(١) د. فخر الدين قباوة / إعراب الجمل وأشباهه / ط ٣ / دار الآفاق الجديدة / بيروت / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م / ٣١ ـ ٣٣ .

حاليا «اسمها» و بـ «التتمة» ما نطلق عليه «خبرها» . وهذه التتمة إن كانت اسما فهى منصوبة ، وإن كانت جملة فهى تتمة فقط . وأما النوع الثانى فيتكون من مبتدإ وخبر ، فإذا دخل عليهما «إن وأخواتها» قلنا إن «المبتدأ» منصوب فى هذه الحالة . وفى جملة الاشتغال إذا كان المشتغل به مرفوعا كان مبتدأ ، وما بعده خبر، وإذا كان منصوباً كان مفعولاً به، والضمير العائد عليه تأكيد له.

ونفس الشيء أدعو إليه فيما يتعلّق بإعراب الكلمات التى تلزم حالة واحدة لا تعدوها أصلاً أو عادةً سواء كانت مبنية أو معربة ، مثل أسماء الإشارة وأسماء الاستفهام والأفعال الماضية والضمائر والحروف، ومثل «الفتى» فى كل حالاتها الإعرابية ، و«القاضى» فى الرفع والجر وما إلى ذلك ، فنقول مثلاً فى إعراب «مَثَلَ الفتى أمام القاضى» : «مَثَل» فعل ماضٍ ، و «الفتَى» فاعل ، و «أمام» ظرف مكان منصوب بالفتحة ، و«القاضى» مضاف إليه . أما فى تراكيب النداء والإغراء والتحذير وما أشبه فيكفى أن نقول فى «يا عبد الله» : «يا» حرف نداء، و «عبد» منصوب بالفتحة ، و«لفظ الجلالة» مضاف إليه مجرور بالكسرة . ولا داعى أبدا أن نقول إن «يا» بمعنى «أدعو» ، و «عبد» منصوب على المفعولية ... إلى آخر هذه التأويلات التى لا معنى لها . وبالمثل نصنع فى «البِدَارَ» و «الأسدَ» و «إياك والأسدَ» : فـ «البدار» اسم مُغْرًى به منصوب بالفتحة ، و «الأسد» اسم مُحَذَّر منه منصوب

بالفتحة كذلك . أما لماذا نُصبا فلأن العرب تنصب مثل هذين اللونين من الأسماء لا لأن المعنى في الأول «الزم البدار» وفى الثانى «تجنّب الأسد» ، فهما مفعول بهما . هذا كلامٌ يشوش ذهن الطالب ويشغله عما هو ألزم له وأهمّ ، وهو سبب من أسباب نفور عامة الطلاب من قواعد اللغة لأنها تبدو لهم ألغازا عويصة مصطنعة لاجدوى منها ولاصدى لها فى الواقع، ونحن معهم فى ذلك . وقل مثل فى جملة «ما أجْمَلَ الزهورا» و «أجْمِلْ بالزهورا» ، فكل من «ما أجمل» و«أجْمِلْ بـ» هى «صيغة تعجب» ، و«الزهور» فى الأولى منصوبة على التعجب ، وفى الثانية مجرورة بـ «فى» ، وكفى الله المؤمنين القتال!

وكذلك أرفع صوتى إلى التقليل من التقديرات ما أمكن ، إذ ما معنى أن نقدر فعلاً بعد«إذا» و «إن» الشرطيتين فى قوله تعالى: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ»(١) ، وقوله سبحانه: «وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»(٢) ؟ ويجيب النحاة بأن «إذا »و «إن» لايجوز أن تليهما جملة اسمية . وسؤالنا بدورنا هو : ومن الذى أفتى بأن ذلك لايجوز ، وقد تكرر هذا التركيب فى القرآن وفى الشعر القديم كثيراً جدًا ؟ أَوَبَعْدَ ذلك كله نُصِرّ على أن التقدير فى الآيتين الكريمتين

(١) الانشقاق / ١.

(٢) الحجرات / ٩ .

هو «إن انشقّت السماء انشقت» ، «وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» ؟ أَوَيَصِحّ أن نضع قاعدة من وهمنا أو بناءً على استقصاء ناقص ثم نُخْضِع لها الجمل التي تخالفها قسراً وبليّ الذراع حتى لو كانت جملاً قرآنية ؟ إن هذا هو الذى لايجوز . كذلك ما معنى القول بأن عبارة «فى الخزانة» من قولنا : «الفلوس فى الخزانة» متعلقة بمحذوفٍ تقديره «كائنة أو موجودة أو ... أو ...» خبرٍ لـ«الفلوس» ؟ لماذا لا نقول مباشرة إن «فى الخزانة» هى الخبر ، ونريح ونستريح ؟ كذلك ما معنى القول إن الفعل المضارع «نُكْرِم» فى قولنا : «ألا تأتينا فنُكْرِمَك» منصوب بـــ «أن» مضمرة وجوباً؟ لماذا لا نقول إنه منصوب بعد «واو المعية» (١) وكفى ؟ وأيضًا ما لزوم القول بأن «لَعَمْرُكَ» مبتدأ خبره محذوف ، وتقديره الكلام : «لعمرك قَسَمِى إن الأمر كذا وكذا» ؟ لم لا نقول ببساطة إن «لعمرك» هى «أداة قسم» ، ولا تقدير ولا يحزنون ؟

وعلى مثل ذلك النحو لا داعى أبدا للقول بأن «أنتم» مثلا فى قوله تعالى : «لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» هى مبتدأ محذوف الخبر ، وأن

---

(١) لاحظ أننى لا أقول منصوب بواو المعية بل بعد واو المعية . ذلك أن سبب النصب هو أن العرب تنصب المضارع فى مثل هذا التركيب ، إلا إذا فهمنا نسبة النصب إلى «واو المعية» على أنه مجاز من مجازات الكلام للتسهيل وتذكير الطلاب بالقاعدة .

أصل الكلام : «لولا أنتم موجودون ...» . والعجيب أن النحاة ، رغم هذا ، يقولون إن الخبر فى هذا الموضع محذوف وجوبا ، أى لايمكن ذكره . فما دام ذكره غير ممكن فكيف عرفوا أن ههنا خبرا وأن تقديره «موجود» ؟ إن هذا اعتساف غير مقبول ، والأحجى أن نقول إن الاسم الذى يقع بعد «لولا» الشرطية يكون مرفوعا ، وكفى . وليس شرطا أن يأتى بعدها جملة ، إذ الكلام لايحتاج إلى هذا البتة ، فقولنا : «لولا أنت» معناها «بدونك» وهو (كما ترى) كلام تامّ لايحتاج إلى تقدير خبر محذوف . والأحجى أيضاً أن نقول فى «نعم الرجل زيد» إن «زيد» بدل من «الرجل» لا إنه مبتدأ حُذف خبره وجوبا، إذ لو كان هنا فعلا خبر كما يقول النحاة، فلماذا وجب حذفه؟ والأحجى كذلك عدم تقدير خبر محذوف فى قولهم : «أنت وحظُّك» ، إذ المعنى واضح دون تقدير كلمة «مقترنان» فى نهاية الجملة. وإعراب الكلام هو : «أنت» مبتدأ، وعبارة «وحظك» سدّت مسدّ الخبر ، والمعنى «أنت مرتبط بحظك» . أى أن «الواو» لاتدل على العطْف بل تعنى ارتباط ما قبلها بما يليها . وما دام الكلام يستقيم بهذه الطريقة المباشرة ، فلماذا نلجأ إلى اللفّ والدوران ؟

وبالمثل أحب أن أعلن استنكارى لقول النحاة فى إعراب «ما» فى قوله تعالى مثلاً : «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ»[1] إنها «زائدة» ، إذ الواقع أن لها وظيفةً تؤديها هنا ، ألا وهى التأكيد ! فبدلا من أن

(١) آل عمران / ١٥٩ .

نسميها : «ما الزائدة» فلنقل : «ما المؤكّدة» لأنه لا يُعْقَل أن يستخدم القرآن أو أى إنسان عاقل كلمة لا معنى لها . إن النحاة فى استخدامهم لهذا الاصطلاح إنما يبغون الإشارة إلى أن المجرور لا بد أن يأتى بعد حرف الجرّ لايفصل بينهما شىء . لكنْ ما دام قد تكرر مجىء «ما» فى القرآن والشعر القديم بين الجار والمجرور فمعنى ذلك بكل بساطة أن هذا يجوز ، وحينئذ ينبغى أن نقول إن «الباء» حرف جرّ ، و«ما» مؤكدة ، و «رحمة» مجرورة . ولا داعى لهذا المصطلح الذى يسىء (من حيث لا يقصد نحاتنا الكرام بطبيعة الحال) إلى القرآن الكريم أو إلى الشعراء والكتاب ، وهم الذين ميزهم الله بعبقرية البيان .

ولا تتوقف عبقرية صاحبنا عند الإفتاء فى النحو بل يضيف إليه الإفتاء فى سكّ الكلمات الجديدة للمخترعات ومصطلحات العلوم ومستجِدّات الأفكار والأوضاع والأنظمة والأطعمة والملابس وما إلى ذلك . ورأيه أنه «يتوجب علينا ألا نضيع الوقت فيما يقابل المفردات والمصطلحات العلمية الإنجليزية فى اللغة العربية وأن نعيد النظر فيما يسمى بمجامع اللغة العربية ومهامّها ، فالعرب منذ بداية القرن العشرين وحتى يومنا هذا ، أى على مرّ قرن من الزمن ، لم يقدموا مصطلحا واحدا فى مجال العلوم والتكنولوچيا فى حين أنهم قدموا

آلاف الكتب الدينية والأدبية التى لا تسمن ولا تغنى من جو
طلابنا اليوم بحاجة ماسة إلى تقوية فى لغة العلم السائدة اليو
الإنجليزية ، خاصة فى المجالات العلمية لأنهم عندما يريدون ا
العلمى العالى فإنهم يحصلون عليه من البلاد الغربية وبلغتهم
مع وجوب المحافظة على لغتنا العربية التى ربما تعود إلى
والريادة عندما يتطور أهلها فكريا وعلميا ويتخلصون من شوائد
وعُقَد الماضى التى تلازمهم . كما أن تسمية المخترعات هى
الأمم التى أوجدتها وأبدعتها ولايحق لغيرها أن يغيرها ، فنحز
«راديو» عما سمّوه عندنا «مذياع» ، ونقول : «تلفزيون» أو
عما سمّوه «الرائى» ، ونقول : «كمبيوتر» عوضا عن «الحا
و«تليفون» عوضا عن «الهاتف» ، وغير ذلك من المسمي
جاءت من الغرب والتى لم يفلح أهل مجامع اللغة العربية فى
أصلا» (١).

وإن نصيحة السيد أوزون فى هذه السطور بوجوب المحا
اللغة العربية لمما يضحك الثكالى واليتامى معا ، إذ أين ه
العربية وقد دعا جَنابه إلى نبذها واصطناع العامية بدلاً منها ثـ
بعد ذلك بالألفاظ المأخوذة من الإنجليزية ؟ ولا أدرى لم ا

(١) ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

بالذات ، وعندنا اليابان والألمان والفرنسيون والروس وغيرهم من الأمم المتقدمة التى تخترع وتولد الأسماء الجديدة لما تخترعه ؟ وهو يرى أن نترك كلمات «حاسوب» و «مذياع» وأمثالهما ولا نستخدم إلا «كمبيوتر» و«راديو» ... إلخ لأنها هى الكلمات الصحيحة ، والأخرى خطأ . فتأمّلْ! وإلى أن يتقدم العربُ العالمَ ويصبحوا مخترعين ويُضْحِى من حقهم حينئذ، وحينئذ فقط ، أن يستخدموا للأفكار والمخترعات الجديدة ألفاظا من لغتهم تكون هذه اللغة قد استحالت إلى مثل مرقَّعة الدراويش ! وكل هذا بفضل العبقرية الأوزونية التى تصطنع فى عملياتها التفكيرية قدميها الضخمتين المفلطحتين بدلاً من عقلها، إن كان عندها عقل !

بارك الله فيك يا مولانا ! ترى من أين جئتنا بفتواك العبقرية بتحريم سكّ المصطلحات والتسميات الخاصة بالاختراعات ومستحدثات الأفكار على العرب بحجة أنهم لم يخترعوا مدلولاتها ، فمن المحرم عليهم إذن أن يخترعوا لها ألفاظا من لغتهم ؟ يا لك من فقيه! طيب ، وماذا نفعل بالمسميات الجديدة التى ولّدناها من لغتنا؟ أنرمى بها فى صندوق القمامة ونستعيض عنها بمسميات إنجليزية مهدرين هكذا ما بذلناه من وقت وجهد فى التعريب ومتخلّين دون

أى داعٍ عن عزتنا القومية؟ ولكن لماذا هذا كله ؟ وما الذى يؤذى نفسك فى أن نستخدم كلمات من عندنا لمخترعات لم تُصْنَع عندنا؟ أوَلا بُدّ فى رأيك أن نستورد الأمرين معا : المخترعات وأسماء المخترعات؟ أرجو من القارئ الكريم أن يتصور أىّ مسخ مشوّه ستكونه لغتنا لو أخذنا بهذه المقترحات الأوزونية الفذة (١).

إن صاحب هذه الدعوة لهو فى أحسن الأحوال :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

إن لغتنا ، والحمد لله ، برغم تخلف أصحابها قد أثبتت عبقرية عجيبة (لا كعبقرية صاحبنا) فى مجاراة العصر ، مع احتفاظها

---

(١) وليس معنى هذا أن اللغة (أية لغة) يمكن أن تخلو من الألفاظ الأجنبية تماماً . لكن ثمة فرقا بين تسرّب بعض هذه الألفاظ إليها بين الحين والحين بحكم الضرورة وبين فتح الأبواب أمامها على مصاريعها دون ضابط ولا رابط ، وبخاصة إذا كان فى مقدورنا إيجاد مقابلات عربية لها كـ «القرص المدمج» للسّى ـ دِى ، و «الحاسوب» للكمبيوتر ، و «المرناء» للتلفزيون ، و «والمِسرّة» للتليفون ، و «السيارة» للأوتوموبيل ، و«القنبلة» للبُمْبة ، «وكرة القدم» للفوتبول، و«كرة الطاولة» للبنج بونج ، و «التسلل» للأوف سايد ، و «فاتح الشهية» للأبرتيف ، و«الشطيرة» للساندويتش .. وهلم جرا . وبالمناسبة فقد كان رأى سلامة موسى من رأى زكريا أوزون ، لكن اللغة العربية لم تحفل بما كان ينادى به وطوّحته فى سلة القمامات !

بقواعدها وأسسها فى الاشتقاق والتركيب ، وإن إنساناً يضيق بمثل هذه اللغة لهو إنسان قد حرمه الله نعمة الذوق والعقل ولايستحق شرف الانتماء إلى هذا الإبداع البيانى!

لكنْ ليس هذا بغريب على من يقول بعدم أهمية الأدب والدراسات الدينية . إن مثل هذا القائل لأقرب إلى الجمادات منه إلى البشر ! وأنا حين أقول ذلك لا أفتئت عليه فى شىء ، فإن مما يميزنا عن الجماد أن لنا عواطف وعقيدة وأخلاقا تتطلب التغذية والإشباع ، وإن إنسانا لايجد للأدب والدين من معنى لهو إنسان عارٍ عن هذا كله. بل لسوف أضرب مثالا واحدا يدل على أنه قد عدم العقل أيضا، إذ من المخترعات الحديثة المرناء (المرناء رغم أنفه ، وعلى شَجَى حلقه ومَغْص بطنه وصداع رأسه) ، فما فائدة هذا المرناء يا ترى إذا خلا من الأفلام والمسلسلات والمسرحيات والأغانى مثلا ؟ أليست هذه الفنون كلها فنونا أدبية؟ ثم ألا يحتاج الناس أن يشاهدوا فيه أيضا البرامج الدينية التى تذكّرهم بربهم وتحيى مَوَات قلوبهم وتبصّرهم بأمور إسلامهم ؟ ألا يدل هذا المثَل على أن الرجل لا يعرف كيف يفكر ، وإنما هى حالات تهيّجية تعروه فينطلق رافساً ومحطما كل ما يلقاه فى طريقه ؟ إن فى هذا الضغن الذى يتناثر من فمه مع زَبَد شدقيه كالحُمَم لبرهانا على شىء وراءه . وصدق المولى الكريم :

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[1] ، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[2] ، وها هو ذا الرجل يحقِّر الكتب الدينية ويراها عديمة الفائدة ! وهذا يفسّر لنا المغزى الكامن وراء بعض من أهدى لهم كتابه ، إذ أهداه ، ضمن من أهداه إليهم ، «إلى كل من أحب الناس على أختلاف أجناسهم وأديانهم ومعتقداتهم» . إن الكتاب فى اللغة والنحو ، فما دخل حُبّ الناس على اختلاف أديانها ومعتقداتها هنا ؟ إن هذا لحن من القول ! ولو كان صادقا فى هذا الحب الكبير لقد كان أولى الناس بحبه هم أهله وعشيرته من المسلمين، لكن المقصود هو حب أهل الأديان الأخرى وكراهية المسلمين ولغة الإسلام والكتب التى تؤلّف فى الإسلام!

إنه يهاجم القديم على طول الخطّ ، القديم العربى والإسلامى وحده ، وإلا فكل الأمم التى يقول لنا إنه يحبها تحافظ على كثير من قديمها . ترى هل ترك الإنجليز أو الطليان أو الإسبان نحوهم ؟ وهل كفّوا عن التأليف فى قضايا الدين؟ وهل توقفوا عن الإبداع الأدبى؟ فلماذا لا يحقر إلا أدب العرب وكتاباتهم الدينية ؟ إن من يتخذ من نبذ القديم مبدأ له لهو إنسان معتوه ، فليس بنبذ القديم، لمجرد أنه

---

(1) آل عمران / ١١٨ .

(2) محمد / ٣٠ .

قديم ، تتقدم البشرية بل بنبذ ما ثبت خطؤه أو ضرره ، أما ما لايزال صالحا من ذلك القديم فلا يفرّط فيه إلا أبله . لنستمع إلى ما يقول: «إن عقدة القديم هى عقدة الشرق الإسلامى بأسره ، وخاصة العرب ، فما جاء من القديم صحيح ، وكل ما يعارضه وما خرج عنه خاطئ أو مشكّك فيه . وهذه المشكلة المعضلة أوصلت الأمة العربية والإسلامية إلى ما وصلت إليه اليوم، فكم من إنسان عربى وُلِد عبقريا فذّا[1] ، ومات جاهلا مكبوتا أمام عُقَد الماضى وحاكميته! ولو قال أحدنا: أنا أرى كذا فى الدين أو اللغة أو الأدب القديم سارع حماة الديار ، ولا ندرى من نصّبهم ليكونوا حماة الديار والماضى ، ليقولوا : ومن أنت لترى ؟ من أنت من العلماء السابقين الذين رأَوْا وبحثوا وعملوا؟ وما عليك إلا الطاعة والتطبيق »[2] .

وجوابى على سؤاله هو : نصّبهم الذى نصّبك لهدم القديم جملة وتفصيلا فى نزقٍ ورعونة ! لقد نصّبت نفسك لهذا ، وهم نصبّوا أنفسهم لذلك، ولكن ثمة فرقا ضخما بينكما : فأنت ترى هدم أهم مقومات الأمة : اللغة والأدب والدين ، أما هم فينافحون عن هذه المقومات ، فشتّان هم وأنت ! أما تباكيك على العبقريات الموؤودة فليس لك حق فيه ، إذ ما دامت العبقريات الموؤودة هى من نوع

(١) كعبقرية زكريا أوزون التى ينضح بها كتابه هذا .

(٢) ص ١٥٧ .

عبقريتك فلا عليهم أن يشهدوا ويريحونا من هذا التخلف العقلى! لقد رأينا ورأى معنا القراء أى لون من العبقرية عبقريتك ، فأنت لا تكاد تفهم شيئا فى النحو : لا مصطلحاته ، ولا مفاهيمه ، ولا تراكيبه ، ولا ... ولا... أنت لا تفهم إلا شيئا واحدا هو الحقد على لغة القرآن والرغبة الأثيمة فى تحطيمها، وهيهات ثم هيهات ! فليس بمستطاع الصرصور أن يهدم الهملايا بقرنيه! فاذهب واجلس إلى قَدَمَىْ من يعلمك العقل أولا ، ثم النحو والصرف واللغة ثانيا (لأنك لاتستطيع أن تتعلم نحوا ولا صرفا ولا لغة دون أن يكون لك عقل يفكر تفكيرا سليما) ، ثم تعال بعد ذلك وادخل من باب النظر فى هذه العلوم فى تواضع وخشوع ، وادرس ما كُتِبَ فيها دراسة متأنية متعمقة ممحّصة. وليس يطلب منك عاقل أن تخرّ ساعتَها أعمى أبكم أصمّ على كل ما كُتِب وقيل ، بل المطلوب منك هو التسلح بالنظرة الناقدة ، والمتحلية مع ذلك بالتجرد والعدل والإنصاف والرغبة فى بلوغ الحقّ لا بالولع بالهدم والتحطيم والحقد. إن من العيب على الأطفال الصغار التطاول على الحكماء الكبار ، وليس من المعقول أن يطمح إنسان إلى التزبّب قبل أن يتحصرم ، لا بل هو مستحيل . فاذهب كما قلت لك فاقرأ وحاول أن تفهم وتتعمّق ، ثم تعال بعد ذلك كله (إن أفْلَحْتَ فى الفهم والتعمّق) فأجِلْ نظرتك الناقدة فى كتب سيبويه والزمخشرى وابن عقيل وابن هشام والأشمونى وغيرهم ، وعندئذ قد

تستطيع أن تبصر فعلا ما هو بحاجة إلى إعادة نظر أو تبديل أو استدراك أو تسهيل أو حذف ...إلخ . إنهم حقا ليسوا إلا بشرا ، ولكن هذه الحقيقة لا تُعْطِى لكل من هبَّ ودبَّ الحقَّ فى التهجم عليهم والتهكم بهم ، وإلا صارت الحياة كلها بهذه الطريقة عبثا فى عبث . اذهب إذن فاقرأ وافهم وتوسَّعْ وتعمَّقْ ، ثم تعال ! أما قبل ذلك فكلا وألف كلا . ولن يفيدك تصايحك وبكاؤك ولطمك خدودك وشقّك لهدومك ، فهذا كلُّه سلوك حمقى الأطفال الذين لا يَصْلُح لهم ولا يُصْلِحهم إلا ضربهم على أصابعهم كى يُقْلِعوا عن هذا السخف! ولو أننا أصخنا لكل متبلّد كسول وعملنا على إرضائه لما تقدمت البشرية خطوة واحدة فى مدارج الحضارة والرقى . الحضارة، يا هذا ، جِدٌّ وكدٌّ وعرق ، والتعليم وتحصيل الثقافة هو أبو الجِدّ وأمُّه وجدوده وأسلافه ، أما الكُسالى الذين يريدون أن يأكلوا وهم نائمون فسوف يفرمهم قطار الحياة فرما . وكفانا ، أيها العرب والمسلمون ، نومٌ وتثاؤبٌ وتخلفٌ وخزى وعار ومذلة ، فالدنيا من حولنا جادة ، ونحن هازلون ، والبركة فى أمثال زكريا أوزون ممن لا يحبون أن يبذلوا جهدا ويريدون أن تنزل الدنيا رغم ذلك على حكم كسلهم وهزلهم ! وهذا هو المستحيل بعينه .

إن من يريد أن يسهّل النحو فلا مَعْدَى له عن البناء على ما مضى (بناءً واعيًا ناقدًا لا بناء العُمْى الذين ليس عندهم فهم ولا

تقدير لما يفعلون وما فعله من سبقوهم) ، أما الحِران والإصرار كلَّ حين على هدم ما سبق فليس له من معنى إلا العودة إلى نقطة الصفر فى كل مرة ، وهذه طريقة تعوق التقدم وتهبط بنا إلى مستوى العجماوات حيث لا وجود للتراكم المعرفى، ولا فرصة لإحراز أى تقدم . إن الطائر يبنى عشه بنفس الطريقة التى كان يتبعها أول طائر خلقه الله ، وعلى نفس النموذج ، أما نحن البشر فشتان بين الجُحْر أو الكهف الذى كان يسكنه الإنسان الأول وبين القصور والدارات والعمائر التى نبنيها اليوم . كذلك فالبقرة تقتفى نفس الأسلوب الذى كانت تقتفيه جدتها الأولى قبل ما لا أدرى كم من ألوف السنين أو من ملايينها فى تناول طعامها ، أما نحن بنى الإنسان فيا لها من آماد شاسعة تُذْهِل اللبَّ تلك التى تفصل بين الطريقة البدائية التى كان أسلافنا الأولون يقتطمون بها اللحم النَّئَ من جسد الحيوان الذى كانوا يقتلونه أو يصادفونه ميتا فى فجر التاريخ السحيق (أو بالأحرى فى ليله الدامس) وبين الأسلوب المتحضر الراقى الذى نُعِدّ أطعمتنا ونتناولها اليوم به!

لقد تعددت المحاولات التى قام بها علماء النحو ومن يهتمون مثلهم بهذا الفرع من العلم لتيسيره ، ولم يحدث أن عالما محترما اعتمد أسلوب الركل والرفس الذى لجأ إليه زكريا أوزون ووجد من يشجعه وينفخ فيه حتى خيَّلوا إليه (ويا للمصيبة!) أنه خبير فى هذا الميدان ، على الرغم من أن هذا الميدان هو من الميادين التى لا يصلح

فيها الركل والرفس ولا يليق ، لأننا لسنا فى إسطبل للخيول أو حظيرة للحُمُر بل فى مجال بحث وعلم . إن أداة البحث والعلم هى العقل لا الأقدام والسيقان ! لقد اجتهد رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وعلى الجارم ومصطفى أمين ومحمد أحمد برانق وعبد المتعال الصعيدى وإبراهيم مصطفى وعباس حسن وشوقى ضيف ومحمد كامل حسين وغيرهم فى محاولة تسهيل النحو وتحبيبه إلى طلاّب العلم فلم يهيجوا هذا الهيجان الأرعن الذى طالعنا بوجهه القبيح المنفّر فى كتاب «جناية سيبويه» ، بل قرأوا وهضموا وناقشوا وقارنوا وقلبوا الأمر على وجوهه قبل أن ينتضوا القلم ليكتبوا . ونستطيع نحن أن نختلف معهم فى هذا أو نوافقهم فى ذاك لأن هناك أسسا مشتركة بيننا وبينهم من الفهم والتحصيل ، أما فى حالة زكريا أوزون فأين تلك الأسس المشتركة ، والرجل جاهل لم يحصِّل شيئا ينفعه فى حاضره أو مستقبله ؟ لذلك قلت له : «اذهب واقرأ» ، بل أقول له كما قال الشيخ لسعيد مهران فى رواية «اللص والكلاب» : «توضأ واقرأ» . توضأ يا سيد زكريا من هذه الرعونة ! توضأ من ذلك الحقد على العربية وما تعنيه وترمز إليه ! توضأ من جهلك وقلة حيلتك! توضأ من تطاولك (وأنت القزم الشّخت الهزيل) على فحول العلماء! توضأ من وهمك أنك عبقرى وأن من حقك أن تقارع الفحول ! لو كنتَ عبقريا كما تتوهم لكنت تريثت وقرأت فأتقنت القراءة ، وأدرت

الموضـوع فى رأسك فـأحـسنت الإدارة ، وقلّبتـه تقليـبا حـتى ينضج ويسـتـوى قـبل أن يخطر فى بالك أن تمتـشق القلم وتخط به على الورق. إن الإمساك بالقلم لهو من السهولة بحيث يستطيع أىَّ أمى أن يفـعله ، وكـذلك الخطُّ على الورق ، ولكن أىُّ خطٍّ ؟ إن ثمـة فرقا بين نكش الدجاج وكتـابة العلمـاء ! فاختـر لنفسك المعسكر الذى تحب أن تَعْتَزِىَ إليه : فإن كنت تريد أن تكون مع الدجاج فمكانَك لا تَبْرَحْه ، فأنت معـها ، أما إن كنت تبغى أن تُحْشَر فى صحبة العلماء المحترمين فقد شرحتُ لك السبيل ، وأنت بَعْدُ حرّ ، وذنبك على جنبك، وانظر لا يخدعنّك أمثالك ممن يخلعون عليك الألقاب ، فليس بنافع للقرد أن يثنى على جمال خلقته قرد مثله ! ومتى كانت الألقاب قادرة على أن تجعل من الجبان شجاعا أو من الشحيح جوادا أو من العيىّ فصيحا أو من الجهول عالما؟ إذن لَما كان شىء أسهلَ من طريق المجد والعظمة ، بيْدَ أنه فى واقع الأمر وحقيقته طريقٌ وَعْر قلمـا سلمت فيـه الأقدام من العثار والانزلاق ! فـما بالك إذا كانت القدم التى تسير فيه ضخمة مفلطحة غبية؟

وعودةً إلى الذين دعَوْا إلى تسهيل النحو واجتهدوا فيه نقول إننا (مع احتـرامنا لجهـودهم وجهـود كل غيـور على العربيـة وقـواعـدها ورغبتهـم فى تثقيف الألسنة الناطقة بها كى تصبح ألسنة بصيرة ماهرة

بطُرُق الكلام الصحيح الفصيح) نرى أن جهودهم المخلصة لن تؤتى ثمارها المرجوّة وعلى أوسع نطاق كما يحبون ونحبّ إلا إذا توفرت لها بعض الشروط المهمة : فأولا كيف يُرْجَى لهذه الجهود الكريمة أن تحقق هدفها ، والعرب بوجه عام ، متعلمين منهم وغير متعلمين ، لايُحِلّون لغتهم من نفوسهم وحياتهم المحلّ اللائق بها؟ إن الشعور القومى والدينى الرشيد غائب أو على الأقل غائم عند الأغلبية منا ، وهذا الشعور ينسحب أول ما ينسحب على اللغة ، حتى إن العربى لايعتز بلغته ولا يشعر أن من واجبه بل مما يشرّفه ويرفع ذكره بين الناس أن يُحْكِمها ويتقنها نطقاً وكتابةً وتذوقا . بل إن العربية لتتعرض على ألسنة كثير من أبنائها لسيولٍ من التهكم لا أظن لغة أخرى فى العالم تتعرض ولا لعُشْر معشاره ، وبخاصة فى التمثيليات والمسرحيات وشرائط الخيَالة مما لا يعادله فى قوة تأثيره أية وسيلة أخرى. وكثير من العرب يحرصون أشد الحرص على ترصيع كلامهم بألفاظ وعبارات أجنبية رغبة منهم فى التباهى بأنهم متحضرون ، مع أنهم قد يكونون من أحط طبقات المجتمع فى الذوق والثقافة ، لكنه الإحساس بالدونية والنقص !

ويرجع هذا ، فيما يرجع إليه ، إلى أن الإسلام ولغته والعرب الذين نشروهما فى أيام عزتهم ومجدهم ورجولتهم وفحولتهم فى

أرجاء المعمورة يشكلون منذ وقت بعيد هدفا دائما لدعاية شياطين الاستعمار والاستشراق والتبشير المسمومة ، هؤلاء الشياطين الذين لم يتركوا فى الغالب مكرمةً فينا أو فى لغتنا وديننا إلا مسخوها وقلبوها مذمة وعارا ، يُلِحّون على ذلك إلحاحًا لا يعرف كَلَلاً ولا مَلَلاً ولا يتوقف لحظة من ليل أو نهار ، ويصطنعون فيه كل الأساليب التى تخطر والتى لا تخطر على البال ، ويتفننون فيها تفننا بُغْيَةَ كسرنا بل تحطيمنا حتى لا تقوم لنا بعد ذلك قائمة فيسهل عليهم مضغنا وابتلاعنا . إنها حرب ضَروسٌ رهيبة ، وهذه بعض نتائجها المحزنة !
ومن أسرار نجاحهم فى هذا الميدان أن العرب فى هذه الفترة من تاريخهم قوم متخلفون عن الغرب وأهله تخلفا شنيعا ، وهذا التخلف يتخذه أولئك الشياطين حجة على أننا وكُلّ ما يتعلق بنا فى الحضيض الأسفل ، وفى ذات الوقت نراهم يتخذون من الأساليب والأسباب ما هو كفيل باستمرار هذا التخلف . إنها لعبة معقدة ، ولكن هكذا هى!
ومن مظاهر تخلفنا أننا نميل إلى الكسل ولا نتخذ لأى شىء عدته كما ينبغى أن نتّخذ العدة ، إذ إن الجدّ بطبيعته مُتْعِب ومزعج ، والكسالى البلداء يكرهون أى شىء يتْعِبهم ، ويحبون أن يظلوا فى غطيطهم لا يزعجهم مزعج ، ولتكن النتائج ما تكون ، ولْتنْصبّ عليهم المصائب من كل حَدَب وصوب كما يحلو لها ، فلكل ذلك ربٌّ اسمه الكريم ، وساعتها سيفرجها ربنا ! أما «كيف» فليس هذا

أوان التفكير فى ذلك «الكيف» بل أوان الاستغراق فى «الكيف» الآخر . وعلى ذلك فأغلبنا لا يحبون العلم لأنه يستلزم السّهر وإرهاق العين والمخّ وتناول الدواء المرّ ، فضلا عن أن نتائجه لا تظهر لساعتها بل تحتاج وقتا طويلاً . ثم لماذا نتعب أنفسنا ، ونحن نستطيع أن نَحْصُل بالاستيراد على كل ما نريد ؟ حتى إن مدينة القاهرة على جلالة قدرها ، فيما قرأتُ ، قد استوردت أجانب لجمع قمامتها ، ولا تزال القمامة رغم هذا تملأ جنباتها .

الطالب العربى عليه إذن أن يُقْبِل بجُمْع همته على العلم إن أراد تقدما ، أما أن يبقى فى مكانه لايريد أن يبارحه ثم يشكو من صعوبة النحو فذلك لن يقضى على المشكلة . وبالمناسبة فالذى يشكو من النحو يشكو عادةً من غير النحو ، والطالب الجاد لا يشكو من هذا ولا من ذاك . ولقد أتقن كثير منا لغتهم منذ وقت مبكر، وهم لا يمتازون عن غيرهم امتيازا ملحوظا فى الذكاء ، لكنه الحبُّ والعملُ والتعبُ والسهرُ والرغبةُ فى الإنجاز والمعرفةُ بأن حلاوه الحياة لا تُسْلِم نفسها إلا لمن صبر على تجرّع مرارتها طويلا . هذه هى طبيعة الأمور ، لكن قومى لايعلمون ، أو يعلمون ولكنهم يتجاهلون! قل لى بربك : لماذا أتقن أجدادنا لسانهم بدليل خلوّ مؤلفاتهم من الأخطاء النحوية والصرفية ، على حين أن كثيرا جدا من مؤلفاتنا الآن تعجّ بمظاهر العجز الفاضح عن السيطرة على قواعد اللغة ؟ إنه الفرق بين الجِدّ

والهزل ، بين العمل والكسل ، بين الشعور بالعزة والإحساس بالهوان، بين الثقة بالنفس والارتياب اليائس فيها وفى قدراتها! أتكون لغتنا ونحوها أصعب من لغة الصينيين أو لغة اليابانيين مثلا؟ إن نحو لغة الضاد لم يتغير فى شىء ، اللهم إلا أنه الآن أصبح يُعْرَض بطريقة أسهل ، فلماذا أتقنه على صعوبة طريقته الأقدمون ، وكَثُر منا العاجزون عن ذلك رغم أن طريقة عرضه قد أصبحت أيسر وأكثر جاذبية ؟

ومعروف أن الإنسان إذا لم تكن عنده رغبة حقيقية وإرادة لعمل الشيء فإنه يجده صعبا ولا يحسنه مهما حاول المشرفون عليه أن يدفعوه إلى التعلم وبذل الجهد. ويزيد الطين بِلّةً أن التعليم الآن بعد أن صار مجانيا وبعد أن أصبح وجاهة اجتماعية فى بلاد العرب أضحى يضم من لديه استعداد ومن ليس له من الاستعداد شيء يذكر، ولم يعد مقصورا على من يختاره بشوق ولهفة كما كان الحال قديما أيام أن كان لا يذهب إلى حلقة الدرس إلا من يحب العلم وعلى استعداد لدفع ضريبته . أما الآن فكل الصبيان والشبان تقريبا يذهبون إلى المدارس والجامعات ، وأغلبيتهم الساحقة لاتدرك قيمة العلم ولاتتذوق له معنى . إنما هو وقت فراغ يمضيه الواحد منهم مع لداته . وإنى لأذكر إلى الآن تعليق إحدى الطالبات البريطانيات ممن كنا نعلمهن اللغة العربية في آداب عين شمس فى الثمانينات عندما

رأت الزحام الهائل للطلبة والطالبات فى طرقات الجامعة يقتلون وقتهم فى الثرثرة والجلوس فى ظلال الأشجار وتبادل النكات والقهقهات، إذ قالت فى دهشة : «هذه ليست جامعة بل ناديا اجتماعيا! » . فهل من المستغرب أن يكونوا ضعفاء فى اللغة وقواعدها ؟ إنهم ضعفاء فى كل شىء لا فى اللغة وحدها ، وثقافتهم ضحلة تبعث على الرثاء ! وأنا حين أقول هذا لا أقوله انطلاقا مما يسمَّى بـ «صراع الأجيال» بل من واقع تجربتى الطويلة فى التعليم . لا نكران فى أن هناك طلابا على مستوى راقٍ من الثقافة والإخلاص فى الدرس والمقدرة على التعبير السلس الجميل، لكنهم قلة قليلة ، كما كان الطلاب قبل ثلاثة عقود من الزمان أفضل منهم الآن إلى حد بعيد.

وهذا يقودنا للتنبيه إلى أن إتقان لغةٍ ما لايمكن أن يقوم على فراغ ، بل لابد له من ثقافةٍ واسعة وعميقة تربط الإنسان باللغة التى يتعلمها وتقيم بينه وبينها ألفة بل صداقة ومحبة . إن النحو ليس قواعد تُحفَظ والسلام ، بل هو نظام ثقافة، ولا بد له من مادة واسعة وثرية يطبَّق عليها . ترى هل يمكن أن يتعلم شخص ما فن تنسيق الزهور مثلا دون أن تكون بين يديه زهور كثيرة ومتنوعة يمارس عليها ذلك الفن ؟ فكيف بالله يتحمس إنسان لإتقان لغة قد حرم نفسه أطايبها وأقام بين عينيه وبين مواطن الحسن والروعة فيها سداً كثيفا فلم يتعرف إلى إبداعات امرئ القيس وعنترة والحطيئة وعمر بن أبى

ربيعة وابن قيسِ الرُّقَيّات وأبي نواس وبشار وابن الرومي والبُحْترى وابن المعتز والمتنبي والبهاء زهير وحافظ وعلى محمود طه والسيّاب ومحمود درويش ، ولا إلى روائع ابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة والطبرى وأبي الفرج الاصفهاني وأبي حيان التوحيدى وابن حزم والغزالى والحريرى والشدياق والمنفلوطى وشكيب أرسلان وكرد على وجبران والريحانى والعقاد والمازنى وطه حسين وزكى مبارك وغازى القصيبى ... إلخ ... إلخ ؟ إن إنساناً قد حرمه الله هذا المتعة العلوية لفقيرٌ مسكين! ولعل القارئ لايزال يذكر إزراء السيد أوزون بالأدب ، الذى يعدّه عديم الجدوى ، فهذا يفسّر له الكثير !

لقد لاحظتُ على كثير من طلبتى فى الماچستير والدكتوراه أنهم لايهتمون بالقراءة لكبار الكتاب بل يقتصرون فى الأغلب الأعم على قراءة الرسائل التى كتبها زملاؤهم ، أى أنهم يأخذون اللغة عن شبان أمثالهم لايزالون فى بداية الطريق ولم يكتسبوا الأسلوب بعد ، فهم بمثابة الأعمى الذى يسترشد فى الطريق بأعمى مثله . كما لاحظت أنهم لا يقرأون فى العادة كتابا أو مقالاً إلا إذا كان ينفعهم نفعا مباشرا فى الرسالة التى يُعِدّونها . أفيصِحّ إذن أن نفاجأ برداءة أساليبهم وما يطبع تفكير أكثرهم من سقم وفوضى واستعصائهم على الإصلاح ؟ إن صدورنا ، على رغم تصبرنا وما نأخذ به أنفسنا من التسامح وطول البال ، لتضيق أشد الضيق ونحن نرى الطالب من

هؤلاء يعود مرة بعد مرة بعد مرة بعد مرة ... إلى اجتراح نفس الأخطاء التى نصلحها له ونشرح له وجه الصواب فيها مردفين له كل هذا بالأمثلة الموضحة . ثم يقول زكريا أوزون إن النحو العربى لا علاقة له بالمنطق ولا بالعقلانية . إنه هو نفسه أكبر دليل على صحة ما أقول، إذ يتصدى لمهمة جليلة لم يستعد لها ولا بواحدٍ على مائةٍ مما تستلزمه هذه المهمة الجليلة من استعداد .

كذلك ينبغى التنبيه إلى أن تدريس النحو يتجه فى الغالب ، وبكل أسًى وأسف إلى حفظ القواعد ، أما التطبيق فلا يَلْقَى العناية الكافية ولا اللائقة ، وعادة ما يقتصر على الإعراب . والنتيجة أن كثيراً جداً من الطلاب يحفظون القواعد عن ظهر قلب ، لكنهم لايستطيعون أن يُعْرِبوا ، وأن كثيرا جداً من الماهرين فى الإعراب لايستطيعون رغم ذلك أن يقرأوا أو يكتبوا على نحو سليم. وبهذا تحول حفظ قواعد النحو والإعراب إلى هدف فى حد ذاته مع أنهما فى حقيقة الأمر ليسا أكثر من وسيلة إلى النطق الصحيح والكتابة البريئة من العيوب والأخطاء واكتساب الحساسية التعبيرية عما يستكن فى أطواء النفس من المشاعر والخلجات ، وما يدور فى الذهن من أفكار ومعانٍ ، وما تجيش به الحياة حولنا من مرئيات ومسموعات ومشمومات وملموسات .

ولست أنسى ، عندما كُلِّفت أنا وزملائى قبل حصولنا على

درجة الدكتوراه بأن ندرّس النحو لطلاب القسم فى آداب عين شمس تدريسا تطبيقيا ، كيف أنى لم أُبالِ كثيرا بمسألة الإعراب أو ترديد نصوص القواعد ، بل جعلت كل وُكْدى تقريبا إلى تدريب الطلاب على قراءة بعض المقالات لكبار الصحفيين المشهورين بحيوية الموضوع وحلاوة الأسلوب بحيث يقرأ أحد الطلاب وينصت الباقون إليه ، فإذا أخطأ رفعوا أيديهم وبينوا موضع الخطإ وذكروا وجه الصواب ، مع الإشارة السريعة إلى القاعدة التى تحكم ذلك ، بالإضافة إلى تكليفهم بكتابة نحو صفحة فى البيت يُحْضِرونها معهم ويقرأ كل منهم صفحته بنفس الطريقة التى يقرأون بها المقال الصحفى ، ثم نختم الدرس بأن أقرأ أنا عليهم نصًا أختاره وأتعمد اجتراح خطإ فى كل جُمْلة من جُمَله ، ومن يكتشف ما وقعتُ فيه يرفع يده ويصوّبه ... وهكذا . وقد ذكر لى أكثر من طالب متفوق بعد ذلك بسنوات أنهم قد أفادوا أكبر الفائدة من هذه الدروس وأنهم كانوا يحبونها . ولكن لا بد أن أشفع هذا بالقول بأن ذلك الحب لم يكن عامًا بين الطلبة . أقول هذا وأقول معه بأننى لستُ متخصصا فى النحو ولا فى الدراسات اللغوية بل فى النقد والأدب . والطريف أننى أنا وأحد أصدقائى بالقرية كنا نفعل شيئا من هذا عندما كنا فى آخر المرحلة الإعدادية ، فقد كنّا نصعد فى مئذنة الجامع الكبير فى قيلولة الصيف فى أوائل

ستينات القرن الماضى ونجلس هناك فى مهبّ النسيم العليل ينفحنا من شجرة «ذقن الباشا» المجاورة للمسجد ، وفى أيدينا كتاب من كتب الأدب أذكر منها «الزنبقة» لحسين عفيف ، فيقرأ أحدنا فيه على حين ينصت الثانى له ، وإذا ما أخطأ نبهه إلى خطئه . ولستُ أدّعى أننا كنا نتنبه دائماً للخطإ والصواب ، ولكنها كانت الخطوات الأولى على طريق عشق اللغة وإتقان القراءة والكتابة الصحيحة .

كذلك ينبغى أن تكون التطبيقات فى البداية من الكتابات العصرية والمقالات التى يؤلفها الصحفيون المشهورون بجمال أسلوبهم وحيوية ما يكتبون ، فإن ذلك أقْمَنُ أن يزيل من نفوس الطلبة الرهبةَ والوحشةَ ويشعرهم بأنهم يتنفسون هواءً طبيعيًا فلا يرتبط النحو والصرف فى أذهانهم بالتكلف والتقعُّر . أُوصِى بهذا لأن الأساليب العصرية تخلو من التراكيب النادرة التى لم تعد تُسْتَخْدَم والتى يرهق الذهنَ إعرابُها مع ذلك إرهاقا .

فإذا ما قبض الطالب على أزِمّة النحو فى استعمالاته المعاصرة قُدِّمت له بعض النصوص القديمة إلى جوار النصوص الحديثة ... وهكذا . ولابد فى أثناء ذلك كله من تفهيم الطلاب أن الإعراب هو السبيل إلى التعبير السليم الحساس عما بنفس الكاتب ، فضلاً عن أنه يتيح له حرية لا نظير لها فى أية لغة أخرى لتنويع طرائق التعبير

واصطياد أدق الأفكار والأحاسيس بأوجز طريق [1]، وأنه أيضا السبيل إلى فهم ما يريد ذلك الكاتب ، فلم يُؤْتَ به للزينة الفارغة ولا للتحكم المرهق . كذلك ينبغى ألا يُرَدّ استعمالٌ أو إعرابٌ يمكن أن يوجَد له وَجْه فلا يبدو النحوى كالشريك المخالف الذى أخذ على عاتقه معاندة الآخرين بكل طريق. ومن المستحسن هنا الاستعانة بالتسجيلات والشرائط التى يستمع إليها الطالب ويحتذى ما تقدّمه له من نماذج احتذاءً يقوم على كثرة التكرار حتى تنطبع الصِّيَغ والتراكيب السليمة فى ذهنه وينطق بها لسانه دون تفكير كأنها سليقة فيه.

ولقد تعلمتُ اللغة الإنجليزية فى أكسفورد على نفسى أكثر مما تعلمتها على أيدى المدرسين بعد أن عرفتُ كلمة السرّ هذه ، فكنت حريصا على أن أشترى كل ما تقع عليه عينى من كتب لتعليم تلك اللغة ثم أعكف على تمارينها النحوية حلاً واحتذاءً نطقيا لما فيها من

---

(١) ونضرب مثالاً واحداً لما نريد قوله ، وهو أننا نستطيع أن نقول فى الفصحى : «ضرب محمدٌ عَليًا ، وضَرَبَ عَليًا محمدٌ ، عَليًا ضرب محمدٌ ، وعَليًا محمدٌ ضربَ ، ومحمدٌ ضرب عَليًا ، ومحمدٌ عَليًا ضرب» ، ولكل تركيب من هذه التركيبات شيَّةٌ خاصة به فى المعنى ، أما فى العامية فليس أمامنا إلا أن نقول : «محمدٌ ضربْ على» . وقد ورد هذا المثال فى كتاب «مستويات العربية المعاصرة فى مصر» للدكتور السعيد محمد بدوى (دار المعارف بمصر / ٥٦) . وبطبيعة الحال فإن الأمر أعقد من ذلك وأوسع ، لكنه مثال يشير إلى ما وراءه .

نماذج حتى أحسستُ أن لسانى قد نشط من عقاله واستقام بعد اعوجاج، ثم عدتُ بعد ذلك إلى الفرنسية ، التى كنت قد دَرَسْتُها فى المدرسة فى مصر ونسيتُها إلى حد كبير فى غمرة انشغالى بتعلم لغة چون بول، فبدأت دراستها من جديد بذات الطريقة وبلغت فيها فى مدى زمنى جِدٍّ قصير ما لم أستطع بلوغه فى السنوات الطوال التى صَرَمْتُها فى تعلمها فى أرض الوطن . ونفس الشىء صنعته فى لندن مع الفارسية فى آخرِ شهرين قضيتهما هناك عقب حصولى على درجة الدكتوراه ، ثم مع الألمانية ، التى درستها فى معهد جوته بالقاهرة واستطعت بعد عدة شهور أن أقرأ بها ترجمات القرآن الكريم، وإن كنتُ قد أهملت للأسف هاتين اللغتين فيما بعد حتى أُنْسِيتُهما لعدم توفر المؤلفات المكتوبة بهما فى مصر إلا فى نطاقات المتخصصين الضيقة .

ولكن قبل ذلك كله لابد من توفُّر الهمة والإرادة والرغبة الصادقة بل العارمة عند الطالب ، وإلاَّ فلو ذوّبنا له قواعد النحو والصرف فى كوب من الشربات وسقيناه إياه بـ «الملعقة الصيني» كما تقول الأغنية الشعبية فلا أمل فى أن يتعلمها لأن عقله لن يتفاعل معها بل سيرفضها كما يرفض الجسم عضوا غريبا عليه . الهمة والإرادة : هاتان هما كلمة السرّ والسِّحْر التى تنفتح بها الأبواب ، وتُذلَّل بها

الصعاب ، وتعنو للإنسان شمّ الجبال والهضاب! وبدونها لن يفلح عباقرة الأرض جميعا فى تعليم إنسانٍ أى شىء . لقد كثر القول فى عصرنا إن النحو العربى صعب ، فهل يا ترى يتقن طلابنا نحو الإنجليزية أو الفرنسية أفضل مما يتقنون نحو العربية ؟ أستطيع أن أجيب من واقع خبرتى الطويلة فى التعليم بملء فمى وبملء يقينى معا بالنفى . إن أشباه العوامّ والدجالين من الذين يُزْرون بالنحو العربى هم الذين يتوهمون أو يريدون أن يتوهم الآخرون أن الجواب الصحيح على ذلك السؤال هو : «نعم» ، إذ يكفى أن يلوى شخص ما لسانه أمامهم بلغة أجنبية كالإنجليزية مثلاً حتى يقولوا : انظروا كيف يتكلم الإنجليزية ويتصرف فى نحوها بسلاسةٍ لا يستطيعها فى لغة أمته ! وشتان بطبيعة الحال بين لىّ اللسان بهذه اللغة الأجنبية أو تلك وبين إتقانها ومعرفة قواعدها . لكنْ ما للعوام والدجالين وهذا؟

بقيت مسألة ، وهى الشبهة التى يرفعها فى وجه النحو والصرف الكارهون للعربية وأساليبها العجيبة وتراثها الثرىّ العظيم ، إذ يقولون : ولماذا لا نسكّن أواخر الكلمات التى تُعْرَب بالحركات ونلْزَم فيما يُعْرَب بالحروف وضعاً واحدا ، أو لماذا لا نترك كل إنسان يحرّك أواخر الكلمات أو يختار الحرف الذى يجعله فى نهايتها حسب هواه ، ونجرى فى تركيب الجملة العربية على وتيرة واحدة لا تتغير كما هو

الحال فى اللغات الأوربية المعروفة لنا ونريح ونستريح ؟ لكن قائلى هذا الكلام قد فاتهم عدة أشياء : فمنها أننا سنغير لغتنا تغييرا عنيفا يرجها رجًا وينقلها من حال إلى حال تبدو معه اللغة التى أُلِفَ بها تراثنا على مدار ستة عشر قرنا ويزيد كأنها لغة أجنبية لابد من صرف الوقت والجهد لتعلمها من جديد ، وقد نتقنها بعد هذا كله أو لا نتقنها كما هو شأننا مع اللغات الأجنبية. ويأتى على رأس هذا التراث كتاب الله الكريم ، الذى يظن زكـــريا أوزون ومن أزّه على هذا الكلام العجيب أنه يستطيع أن يختلنا فى شأنه بالقول بأن القرآن شىء مختلف وأننا لن نتعرض للغته على أى وضع، بل يبقى له الإعراب . وهل يستطيع أحد، بعد أن نُسْقِط ذلك الإعراب من لغتنا الجديدة بل بعد أن نطّرح عنا اللغة الفصحى جملة ونركن إلى العامية (بل العاميات التى لاتكاد تنتهى عَدًا)، أن يفهم لغة القرآن ؟ إن هذا منطق إبليسى لا يمكن أن يدور إلا فى عقول الشياطين ! وهو ، فى حال أوزون ، ترديد ببغائى لما أذكر أنى قرأته عند أحد النصارى ممن يَدْعُون إلى الأخذ بالعامية وإهمال الفصحى . فانظر أيها القارئ إلى ما تهجس به الضمائر الملتوية ثم يأبى الله إلا أن يفضح نياتها السُّود فيطفو على ألسنتهم ذكر القرآن ، الذى إنما يتكلفون هذا كله لحربه ومحوه من الوجود فى صمتٍ لا يستفز مشاعر الغيارى من العرب والمسلمين ، إلا أنه سبحانه يُنْطِق ألسنتهم بما تريد قلوبهم أن تخفيه فى أطواء كهوفها المسكونة بعقارب الحقد وأفاعيه!

ثم سؤال آخر : أيهما أحسن خُطّة وأبرك عُقْبا ؟ ألاّ يكون للجملة العربية إلا تركيب واحد لا تعدوه كالفقير الذى لايعرف إلا لونا أو اثنين من الطعام لا يغيرهما على توالى الأيام والأعوام ، أم أن يظل لها ثراؤها الذى نعرفه والذى يتيح للكاتب والمتكلم أن يتفنن كما يحب فى بنائها بالتقديم والتأخير والحذف والإضافة والاعتراض والتلوين فى أمان وثقة ويسر بحيث يبدو النص الأدبى ، وبخاصةٍ عند أولئك الذين تشربوا عبقرية الأسلوب العربى ، حديقة حالية بفاتن مختلف الأوراق والثمار والأزهار والألوان والعطور وأنغام النحل والطيور؟ سيقول أوزون ومن وراءه : بل نفضّل الوتيرة الواحدة ! لكن أوزون وأمثاله نَسُوا أو يتناسَوْن أنهم لايملكون وحدهم هذه اللغة أولاً ، وأنهم ليسوا ممن ينْصَت إليهم لما ظهر من جهلهم وسوء طويتهم ثانيا، وأنهم إن رضُوا بهذا فلن نرضى نحن الذين أنعم الله علينا بالقدرة على تمييز هذه الفتنة الرائعة العبقرية فى لغة القرآن الكريم والاستمتاع بها وتقديرها حق قدرها . وكما أنه من غير المعقول أن ترتد البشرية على أعقابها فتعود إلى تغطية أجسادها بأوراق الشجر بدلاً من الملابس الجميلة التى يتفنن المصمِّمون والصنّاع والخياطون فى إخراجها لنا كى ننعم بملمسها وشكلها وألوانها وتفصيلها ، أو أن ترجع القهقرى فتصنع كما تصنع الذئاب إذ تتناول طعامها بنهش جثث الحيوانات النافقة وتترك المائدة والأطباق والأكواب

والملعقة والشوكة والسكين والميدعة والفوطة والزهور والشموع ، فضلا عن اللوحات المعلقة على الجدران والموسيقى التى تشنّف الآذان ، فكذلك من غير المعقول أن يفرّط من رزقهم الله عقولاً وأذواقا سليمة غير مريضة من أهل العربية فى نظام لغتهم الرائع المبدع ليُرضوا السيد أوزون ومن على شاكلة السيد أوزون. إن على المريض أن يبحث عن علاج نفسه لا أن يدعو الأصحاء الذين لم يُبْتَلَوْا بالسقام إلى أن يمرضوا مثله ويحرموا أنفسهم من نعمة الصحة والعافية والمقدرة على تذوق الثروة التى أتاحها لهم الكرم الإلهى من الأشربة والمطعومات !

* * *

والآن وبعد أن تبين لنا الجهل الغليظ الذى يتسم به زكريا أوزون فى الميدان الذى ظن بقلة عقله أنه يستطيع أن يجول فيه ويصول كفارسٍ همام فإن الإنسان لَيَدْهَش بل لَيُشْدَه حين يجد من يصف تلك الوريقات السخيفة التافهة المسمّاة «جناية سيبويه» بأنها « أقرب إلى شكوى خبير لغوىّ يبحث عن حلول » ! جاء هذا الكلام فى عَرْض للكتاب بموقع صحيفة « الرأى العام » على الإنترنت [1].

(١) الذى أقترح أن يترجم بـ «المِشْباك» لأنه يشبك طلاب العلم والمعلومات والمؤلفين بعضهم ببعض ، ولعل هذه الترجمة أن تنال قبول الكتّاب . وقد عثرتُ على هذا المقال والمقال التالى فى الرد عليه على صفحة «المشباك» بعد أن اشتريتُ لنفسى حاسوبا وأصبحت قادرا على استعماله فى بعض الأغراض ، وذلك بعد انتهائى من الكتاب الحالىّ ببضعة شهور .

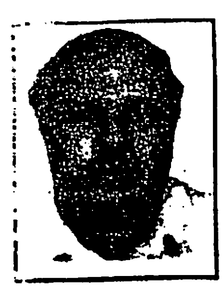
فتأمَّلْ وتعجَّب ! ولم يكتف العارض بذلك الهراء بل جعل كاتبَنا العاطلَ عن العلم حلقةً في سلسلة تبدأ بابن جِنِّيّ من العصر العباسى وتصل إلى الشيخ إبراهيم البازجى فى العصر الحديث، مسوِّيا على هذا النحو المضحك بين البعوضة والنسور ! وواضح أن كاتب العرض المذكور لايعرف شيئا عن موضوعه ، وإلاَّ لما قال مثلاً إن المؤلف يدعو إلى التخفيف من قواعد الإعراب ، إذ إن زكريا أوزون إنما يدعو إلى نبذ اللغة العربية جملة والاستعاضة عها بالعامية ، وهو ما يعنى القضاء على الإعراب نهائيا لا التخفيف منه كما يهرف صاحب العرْض .

الحق أن السيد أوزون بحاجة ملحّة للعودة إلى قاعة الدرس كى يسدّ ثغرات الجهل الكثيرة التى يعانى منها ، أما أن يكون أستاذا أو خبيرا لغويا أو ما أشبه من ألقاب الخبص هذه فذلك من نكد الدنيا. ولقد استفزّ هذا التدجيل كاتبا فلسطينيا حرّا هو د. رفيق حسن الحليمى، فانبعث للردّ عليه مهاجما أصحاب القلوب المريضة والنيات الخبيثة الذين يعملون بكل جهدهم للقضاء لا على النحو فقط بل على كل ما هو عربى وإسلامى ، واصفا إياهم بأنهم أصحاب أقلام مأجورة ويحركهم التعصب العرقى والنعرة الإثنية . ويبدو أنه يؤمئ إلى أن أوزون ليس عربى الأصل . كما يؤكد د. الحليمى بحق أن العيب ليس فى لغتنا بل فينا نحن ، فحياتنا متردية فى كل جوانبها لا فى

اللغة فحسب ، وهو ما أبرزناه بما فيه الكفاية فيما مرّ من صفحات .
وبحق أيضا يؤكد أن الكتاب يفتقد المنهجية العلمية والموضوعية وأنه يعكس حالة مرضية عُصَابية مزمنة من الإفلاس والتدهور والخضوع التام لذاتيةٍ مسرفةٍ من أحد أدعياء الثقافة والإصلاح[1] .

---

(١) يمكن للقارئ الرجوع إلى الرد كاملاً فى موقع صحيفة « الرأى العام» على «المِشْباك» (الإنترنت) .



د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

- دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢ م
- له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها :

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
- المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي - دراسة تحليلية
- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدى وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصي
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية « العار »
- مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
- نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠ م
- محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ في رسالة « الرد على النصارى »
- محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره الإسلامي
- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن اسحاق
- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- المرايا المشوهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- في الشعر الجاهلي - تحليل وتذوق
- في الشعر الإسلامي والأموى - تحليل وتذوق
- في الشعر العربي الحديث - تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدبــاء سـعوديـون
- دراسـات في المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
- سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
- « وليمة لأعشاب البحر » بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية

رقم الإيداع
٢٠٠٣/١٥٤٦٣م

دار الفردوس
للطباعة والكمبيوتر
ت ٦٢٦٩٨٩٢
م ٠١٠٥٤٢٠٨٠١